فصل

في فتح شقيف ارنون

قال القاضي ابن شداد: وهو موضع حصين، قريب من بانياس، خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونزل من الغد يوم السبت في مرج برغوث، فأقام به والعساكر تتابع إلى حادي عشر، ورحل إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون، فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه، ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف، والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد، وصاحب الشقيف يرى مايتيقن معه عدم السلامة، فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه وماأحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده أناة، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه لايقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، واقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يمكن من الاقامة بموضعه، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغل هذه السنة، فأجيب إلى ذلك كله، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت ويناظرنا في صحة دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه، ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل مافعله من المهلة غيلة

لأنه صادق في ذلك وإنما قصد به تدفيع الزمان، وظهرت لذلك مخايل كثيرة من الخوض في تحصيل الميره، وإتقان الأبواب، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة إليه، وأظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان، والفرار من وخم المرج، فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فماطله السلطان، وماآنسه وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجماعة، ونأخذ رأيهم، ثم وكل به من حيث لايشعر إلى أن كان من أمره ماسيذكر.

قال: وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشوبك، وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدّة سنة حتى فرغت أزوادهم وسلموه بالامان.

وقال العماد: كان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، وقد أكمل في حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السلطان وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر أنه محترز من علم المركيس لعنه الله بحاله ، فلا يسلم من جهله وحينئذ يسلم الموضع بما فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه، ويخدمه على اقطاع يغنيه، وعن حب أهل دينه يسليه، فأكرمه وقربه، وقضى أربه، وأجابه إلى ما سأله، وقبل منه عزيزاً مابذله بذله، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة ووجد إليه سكوناً وسكينة، فشرع أرناط في إزالة وهنه ، وترميم مستهدمة وتوفير غلاله، وتدبير أحواله ونحن في غرة من تحفظه، وفي سنة من تيقظه، وكان يبتاع من عسكرنا الميرة، ويكثر فيه الذخيرة، وقد أضمر الغدر، وظن أن له النصر، والسلطان حسن الظن به، يحمل صدق الواشي به على كذبه، وكان انتهاء المدة يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة، وأقام السلطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهدنة وتسليم الحصن، وخاف إن فارقه أن تجيء امداد الفرنج اليه، وكان مشفقا أيضا من جانب أنطاكية لانتهاء أشهر هدنتها، فكتب إلى تقي الدين بالمقام في تلك الخطة، وسير بذلك

الفقيه عيسى الهكاري، ولم يستدع إلا صاحب آمد قطب الدين سكمان ابن قرا أرسلان، فجاء في أمداده وأعداده، ولازم السلطان فلما قرب انتهاء مدّة صاحب الشقيف أحضره السلطان فتضرّع، وقال: إن قومي إلى الآن لم يخلصوا من صور، وقد أنعمت فأتمم وسأل أن تكون المهلة سنة، فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب، فكلمه بإيناس وما ردّه بياس، فأرخى طوله، وأرجى أمله، وأمر السلطان بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقي من الهدنة يومان، فتضور صاحب الحصن فقيل له تقيم عندنا في كنف الأمان، فبكى وتألم من ضبطه وانكشفت سريرته الغادرة، فأمربحمله إلى الشقيف حتى يسلمه ووكل به وحفظ من حيث لايعلم، وقيل لعله يحسن ولايحوج إلى المقابحة ويسلم، وقيل له قد بقي يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم، فأبدى ضرورة وضراعة وقال: سمعاً وطاعة، وكان له ملقى وملق، وفي لسانه ذلق، وماعنده من كل ماتفرق فرق، وقال: أنا أنفذ إلى نوابي في التسليم، وهو قد تقدّم إليهم بالوصية والتعليم، فأظهروا عصيانه، وقالوا يبقى مكانه، فقيد وحمل إلى قلعة بانياس، وبطل الرجاء فيه وبان الياس، ثم استحضر في سادس رجب وهدده وتوعده، فلما لم يفد خطابه، ولم يجد عذابه، سيره إلى دمشق وسجنه ورتب عدة من الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم.

فصل

وفي مدة مقام السلطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف أرنون ، اجتمعت الفرنج وجرت لهم مع المسلمين وقائع.

قال القاضي ابن شداد: كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنه إن أمر الملك من بها بتسليمها أطلقه، فأمرهم بتسليمها وسلموها، فطالبه الملك باطلاقه فأطلقه وفاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد، أطلقه من انطرسوس واشترط عليه أن لايشهر في وجهه سيفاً أبداً، وأن يكون مملوكه وطليقه، فنكث لعنه الله وجمع الجموع وأتى صور يطلب الدخول إليها فخيم على بابها يراجع المركيس الذي كان بها في ذلك الوقت، وكان المركيس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد وصرامة عظيمة، فقال له: إنني نائب الملوك الذين وراء البحر وماأذنوا لي في تسليمها إليك، وطالت المراجعة واستقرت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعاً على المسلمين وتجتمع العساكر التي بصور وغيرها من الفرنجية على المسلمين، وعسكروا على باب صور، ولما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأولى بلغ السلطان من جانب اليزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا وهي الأرض التي نحن عليها، فركب السلطان نحو اليزك فوصل وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر منهم جماعة الجسر فنهض إليهم يزك الاسلام وكانوا في عدة وقوة فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلوا ، ورموا في النهر جماعة فغرقوا، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك للسلطان يعرف بأيبك الاخرش، وكان شجاعاً باسلاً مجر باً للحرب ممارساً فتقطر به فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشاب حتى فني، ثم بالسيف حتى قتل جماعة، ثم تكاثروا عليه فقتلوه، وفي يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى ركب السلطان يشرف على القوم على عادته ،

فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وحرص رحمه الله في ردهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر ، وناوشوا العدوّ، وعبر منهم جماعة إليهم وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع لهم من الفرنج خلق عظيم وهم لايشعرون، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيداً منهم ولم يكن معه عسكر فإنه لم يخرج للقتال، وإنما ركب مستشرقاً عليهم على العادة في كل يوم، ولما بان له الوقعة، وظهر له غبارها، بعث إليهم من كان معه ليردوهم، فوجدوا الأمر قد فرط، والفرنج قد تكاثروا، حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفراً عظيماً، وأسروا جماعة وعدّ من قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفرنج أيضاً عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدّم الألمانية، وكان عندهم عظيماً محترماً، واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الأمير غازي سعد الدين مسعود بن البصار، وكان شاباً حسناً شجاعاً، واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة، على ماذكره جماعة لازموه.

قال: وهذه الوقعة لم يتفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المدة، ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين من هذه الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرّر معهم أنه يهجم على الفرنج، ويعبر على الجسر، ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صمم العزم على ذلك، رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها، فرأى رحمه الله أن يسير إلى عكا ليلحظ مابني من سورها ويحث على الباقي، فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا فرتب

أحوالها، وعـاد إلى العسكر بمـرج عيون منتظراً مهلـة صاحـب الشقيف، ولما كـان يوم السبـت سادس جمادى الآخـرة بلغـه أن جماعة مـن رجالـة العدوّ يتبسطـون، ويصلون إلى جبـل تبنين يحتطبون، وفي قلبـه من رجـالة المسلمين وماجرى عليهـم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعـدة كمين يرتبه لهم وبلغه أنهم يخرج وراءهـم أيضا خيل تحفظهـم، فعمل كمينـاً يصلح للقاء الجميع، ثـم أنفذ إلى عسكر تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عـابرين على تلك الـرجالة، وأن خيل العـدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهـة عينها لهم، وأن يكـون ذلـك صبيحـة الاثنين ثامـن جمادى الآخـرة، وأرسـل إلى عسكر عكـا أن يسير حتى يكـون وراء عسكر العـدو حتى إن تحركـوا في نصرة أصحـابهم قصدوا خيمهـم، وركب هـو وجحفلـه إلى الجهة التـي عينهـا لهزيمـة عسكـر تبنين حتـى قطـع تبنين، ورتـب العسكـر ثمانيـة أطلاب، واستخرج من كل طلب عشريـن فارساً وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهـروا إليهم ويناوشـوهم، وينهـزموا بين أيديهم حتـى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلـك وظهر لهم مـن الفرنـج معظم عسكـرهم يقـدّمهم الملـك لعنه الله، وجـرى بينهـم وبين هذه السريـة اليسيرة قتـال شديـد، والتزمـت السرية القتال وأنفـوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهـم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطـان في أواخر الأمر، وقد هجم الليل فبعـث بعوثـاً كثيرة فعاد الفـرنج نـاكصين على أعقابهم، وقتـل من الفـرنج عشرة أنفـس، ومن المسلمين ستـة: اثنان مـن الترك، وأربعة مـن العرب منهـم الأمير زامل، وكـان شابـاً حسن الشبـاب يتقدم عشيرتـه، وكان سبب قتله أنـه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفـرسه فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثـة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكـر قتلوهم خشية الاستنقاذ. وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة.

قال: ومن نـوادر هذه الوقعة أن مملوكـاً من مماليك السلطـان يقال له أيبك أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجـراحاته تشخب دماً، وبات ليله أجمع على تلـك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثـاء فتفقده أصحابـه فلم

يجدوه فعرّفوا السلطان فقده، وأنفذ من يكشف عن حاله فوجدوه بين القتلى فحملوه إلى المخيم، وعافاه الله، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر فرحاً مسروراً.

وقال العماد: اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الأسر، وقالوا: نحن في جمع جم خارج عن الحصر، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر فثربنا للثار، وأعرنا من هذا العار، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، واتفقوا أنهم يقصدون بلداً إسلامياً من الساحل، ويقيمون عليه والمركيس يمدّهم من صور بالمدد والعدد، ثم جاء الخبر أنهم على قصد صيدا للحصر، وقد جسروا على عبور الجسر، ووقعت عليهم اليزكية فردوهم، ووقع في الأسر من سباعهم سبعة، فحملوا إلى سجن دمشق، ثم ذكر قتلهم للغزاة المطوعة على الجسر، وقال: لم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكره، وأذاقونا بعد أن حلالنا جنا الفتوحات مرارة هذه المرة، فأيقظنا الله من رقدة المغره، وأخذ الناس حذرهم، وقالوا: بهذا وعد الله حيث قال: (فيقتلون ويقتلون)[٨٩] وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون، ثم ذكر وقعة الكمين. قال: وكان مع المسلمين أربعة من أمراء العرب، فحملوا كما وصاهم السلطان على عزم الطراد ليقصدوا الكمين، وسلكوا أسفل الوادي، وإنما الطريق أعلاه، ولاخبرة لهم بتلك الأرض، فعرف الفرنج أنهم ضائعون فطاردوهم وردّوهم إلى المضيق، وأنفت العرب من الهزيمة فاستشهدوا، قال: وكان معهم مملوك للسلطان يقال له أيبك الساقي فاعتزل إلى صخرة واحتمى بها، ونكب كنانته ورماهم بنشابها، وهم لايقدرون على الاقتحام إليه بالخيل، فرموه بالزنبورك، حتى كثرت فيه الجراحات، وظنوا أنه قد مات، ووصل الخبر إلى المسلمين فأدركوهم، ووقفوا على الشهداء وقبروهم، وجاؤوا إلى أيبك فوجدوا فيه الروح فنقلوه إلى الخيام ، وهم يظنون إنه لاخلاص له من الحمام، وكان في أجله باقية. فمن الله عليه بالعافية.

فصل

في نزول الفرنج خذلهم الله على عكا

قال القاضي ابن شداد: ثم بلغنا بعد ذلك أن الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا، وأن بعضهم نزل باسكندرونه، وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك، ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لاقصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب فوصل قاصد أخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصه، ووصل أوائلهم إلى الزيب، فعظم عنده ذلك، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل، وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدوّ ويواصلون بأخباره، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له مينة صبيحة الثلاثاء وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه، واشتد حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً، وسار السلطان جريدة من المينة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فإنه كان واعدهم إليه، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير،وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا،

فنزل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، فكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو، وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية، واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لايخرج منها أحد إلا يجرح أو يقتل، وكان عسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، قال: ومارأيت من نقصهم عن ذلك، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر لاينقطع. وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهافتون على قتالهم، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والأمراء من الأقطار تتابع، ووصل تقي الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين، وفي اثناء هذه الحال توفي الحسام سنقر الخلاطي وفاة بأسها شديد، وكان شجاعاً ديناً، فأسف المسلمون عليه.

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا، بحيث منعوا من الدخول والخروج منها، وذلك سلخ رجب، فعظم على السلطان وضاق صدره وثارت همته العالية في فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة، فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدو إلى أن ملكوا التلول، وكانت ميسرة عسكرهم إلى البحر الحلو آخذة إلى البحر الملح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا، واتصلت الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل، وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين في السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الأخرى، وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا، فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، والتفت

السالمون منهم إلى خيامهم و هجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم، ووقف اليزك الاسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذي جدّده، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة، واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا، ورقي على السور، ونظر إلى عسكر العدو وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال، وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من ورائه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعاني هذه الأمور كلها بنفسه، ويصافحها بذاته لايتخلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدّة حرصه، ووفور همته كالوالدة الثكلى، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الاحد لم يتناول من الغداء إلّاشيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وفعلوا ماكان عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان، عزم العدو على الخروج بجموعهم، فخرج راجلهم وفارسهم، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في نفوسهم ولاخارجين من راجلهم، والرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك، فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا بأجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصاً على عقبيه والسيف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح، والعاطب طريح، يشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم، ولايلوي الجماعة منهم على قبيلهم، حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً، وكان قصاراهم أن يحفظوا

نفوسهم، ويحرسوا رؤوسهم ، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها.

قال: وكنت ممن دخل ورقى على السور، ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار حتى كان الحادي عشر من شعبان، ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثقل إلى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان، وكان من شجعان المسلمين ودفن في سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان، وبلغ السلطان أن جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم، فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه، وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جمع عظيم من الطائفيتن، وطال الأمر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسبي ونهب، وأنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا، وصبي منكم، فأخرج صبيان من البلد إ لى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض، وأخذه أسيراً فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين، وقالوا: هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر، ومازال يسبح وهم حوله يردّونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون.

قلت: وذكر العماد كل هذه الوقائع والنوادر في كتابه بألفاظه المسجوعة، وقال: كان من رأي السلطان أن يسايرهم في الطريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النزول، فإنهم إذا نزلواصعب نزالهم، وأتعب قتالهم، وقالوا: —يعني أمراءه— بل نمضي على أسهل الطرق، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحة، وسرنا على جب يوسف إلى المينه، وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا، ونزل يوم الأربعاء على جبل الخروبة، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق خيمه على تل المصلبة، وربطب مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالآجام المؤتشبه، ثم عبر السلطان بجيشه ونزل بمرج عكا على تل كيسان، وصرنا محاصرين المحاصرين، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، واحدقنا بأولئك الكفرة إحاطة النار بأهلها، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها، ورتبنا بالزيب والنواقير رجالاً يصدونهم عن سبلها ،ودمنا نصدّهم ونصدمهم، ونوجدهم في البحر ونعدمهم، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرّز وذلك في آخر رجب لانسلاخه، و الاسلام يناديا باستصراخه، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد اتفقت الآراء على أن يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الإسلامية، فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكدر عليهم صفو مشاربهم وقلل مضاء مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون، كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل، وكالسور المحيط ماعليه متسلق وكالجبل الأشم مافيه متعلق، فزحفنا إليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز، وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا فانهزم الفرنج إلى تل المصلبين نحو القبة، وثبتوا عند الوثبة،

وانفتح لنا طريق عكا فدخلها الرجال، وحملت إليها الغلال، والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا، وأصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة، فتوقفوا عن تمام العزيمة، ولو أنهم استمروا لباد العدو بصرعه، فإن للصدمة الأولى في الروع روعه، فبلع العدو ريقه، ووجد إلى الجلد طريقه، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات، وضربوا الجروخ وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها وكانوا في عدد الرمل ومدد النمل، وهم في كل يوم في ازدياد، والبحر يمدهم بالامداد، وشرعوا في حفر الخنادق، وسد المضائق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للمسلمين في ليلهم قائم بأمرهم في نهارهم، ومن كتاب فاضلي في بعض الوقعات: «فاستدارت بهم رجال الجاليشية تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيور نشابها، وتجنيهم من القنا والنشاب ثمر الردّا متشابها، وقد ارتفع الاسلام إلى درجات سيذكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمر ذكرها، فالنصر خافق علمه، وكتاب البشارة قد استمد قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسار، واعدت ألفاظه البشرى المهداة إلى كافة البشر من الاستبشار، فإن الفرنج محصورون، والنازل المحصور كالمركب المكسور، والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجرور .

فصل

في المصاف الاعظم على عكا وهي الوقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى

قال القاضي ابن شداد: لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة، فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم، واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بثوب أطلس مغطى يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه وهم يسيرون بين يدي الملك، وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التلال، فكان طرف ميمنتهم إلى النهر، وطرف ميسرتهم إلى البحر، وأمر السلطان الجاووش أن ينادى في الناس: يالاسلام وعساكر الموحدين، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة، وامتدت الميمنة إلى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً، وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبية الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لايحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولده الأفضل ثم ولده الظافر ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البكنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس، ثم قايماز النجمي ،و جموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر، وأما أوائل الميسرة فكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدّميهم ، والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية، ومجاهد الدين يرنقش مقدّم عسكر سنجار وجماعة

من المماليك، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره، وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكوج ورسلان بغا، وجماعة الأسدية الذي يضرب بهم المثل وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى وجمعه، هذا والسلطان رحمه الله تعالى يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال، ويدعوهم إلى النزال، ويرغبهم في نصرة دين الله، ولم يزل القوم يتقدمون والمسلمون يقدمون حتى علا النهار، ومضى فيه أربع ساعات، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين وأخرج لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة، وتكاثروا على تقي الدين، وكان في طرف الميمنة على البحر فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يتعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً فأمده بأطلاب عدّة من القلب حتى قوي جانبه، وتراجعت ميسرة العدو، واجتمعت على تل مشرف على البحر ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب، ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم، قال: ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة ولايسبقونها وهم يسيرون خبباً وجاءت الحملة على الديار بكرية كما شاء الله تعالى، وكان بهم غرة عن الحرب، فتحركوا بين يدي العدو وانكسروا كسرة عظيمة، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية، فإنهم استداروا حول التل وصعدت طائفة من العدو إلى خيم السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك، وفي ذلك اليوم استشهد اسماعيل المكبس، وابن رواحة رحمهما الله تعالى، وأما الميسرة فإنها ثبتت فإن الحملة لم تصادفها وأما السلطان رحمه الله فإنه أخذ يطوف على الأطلاب ينهضهم ويعدهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد، وينادى فيهم: ياللاسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف، ويتخرق الصفوف، وآوى إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام، وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الأقحوانة قاطع جسر

طبرية، وتم منهم قوم إلى دمشق، وأما المتبعون لهم فإنهم أتبعوهم إلى العياضية فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم وجاؤوا عائدين إلى عسكرهم،فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على فعال الخمل فقتلوا منهم جماعة، ثم جاؤوا على رأس السوق فقتلوا جماعة، وقتل منهم جماعة، فإن السوق كان فيه خلق عظيم، ولهم سلاح وأما الذين صعدوا الخيم السلطانية فإنهم لم يلتمسوا شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرناه وهم ثلاثة نفر، ثم رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتم، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو ،فلما رأى الفرنج نازلين على التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم، فصاح في الناس وحملوا عليهم وطرحوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم والطرد وراءهم، فلما رآهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل، وأنه إنما نجا منهم هذا النفر فقط، وأن الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة، وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة، وتحايا الرجال وتداعت، وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الايمان، وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكر العدو، فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها خشية من هذا الأمر مستريحة، فردوا المسلمين، وكان التعب قد أخذ من الناس والخوف والعرق قد ألجمهم، فتراجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين، وعاد السلطان وجلسوا في خدمته يتذاكرون من فقد منهم، فكان مقدار من فقد منهم من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً، ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى رحمه الله، ولقد رأيته وهو جالس يضحك

والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لايوم العزاء، وكان قد وقع هو من فرسه رحمه الله وأركبه، وقتل عليه جماعة من أقاربه، وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي يعني ابن مراون، وزاد العماد: والحاجب خليل الهكاري.

ثم قال القاضي: هذا الذي قتل من المسلمين وأما العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف، ولما تم على المسلمين من الهزيمة ماتم رأى الغلمان خلوا الخيام عمن يعترض عليهم فإن العسكر انقسم إلى منهزمين، ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد، ورأوا الكسرة قد وقعت فظنوا أنها تتم وأن العدو ينهب جميع مافي الخيم، فوضعوا أيديهم في الخيم ونهبوا جميع ماكان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا، فلما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ماقد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع في الكتب والرسل في رد المنهزمين، وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبه فيق فردوهم وأخبروهم بالكرة للمسلمين، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان، وجمع الأقمشة في خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي، وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم إلى أن كل من عرف شيئاً وحلف عليه يسلم إليه، وهو يتلقى هذه الأحوال بقلب صلب، وصدر رحب، ووجه منبسط ورأي مستقيم، واحتساب لله تعالى، وقوة عزم في نصر دينه.

وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم، وقعدت ملوكهم، وطرحت مقدموهم، وأمر السلطان أن خرج من عكا عجل يسحبون القتلى إلى طرف النهر ليلقوا فيه.

قال: ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخذ خيطاً، وكان

كل ما أخذ قتيل عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسراً، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدّهم فإنهم ولي أمرهم غيره، وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه، وأقاموا في خيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشذب من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة، فإنه مارجع منها إلا رجل معروف خاف على نفسه والباقون ذهبوا في حال سبيلهم، وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، وأقام المنادية في العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته حتى أن الجالس في أحد الطرفين لايرى الجالس في الطرف الآخر، وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف عليه وأخذه من الحبل والمخلاة إلى الهميان والجوهرة، ولقى من ذلك مشقة عظيمة، ولايرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها، ولقد حضرت يوم تفرقه الأقمشة على أربابها فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان.

قال: وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها، أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخرّوبة خشية على العسكر من أراييح القتلى وآثار الوقعة من الوخم، وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند الثقل، وأمر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر، ثم أمرهم بالاصغاء إلى كلامه، وكنت من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا، وقد وطىء أرض الاسلام، وقد لاحت لوائح النصرة عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولابد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب.علينا

ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ،و الرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين، —يعني— الثاني من الشهور الشمسية، فانفصلت أراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، وتكليفهم أمراً على خلاف ماتحمله القوى لاتؤمن غائلته، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ونستعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة، وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجي قد عراه من كثرة ماحمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ماقالوه ورآه مصلحة فأقام يصلح مزاجه، ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان.

قال: وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع، وكان رأيه رحمه الله أن قال: المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم وخيف على البلد منهم، وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد، وكان الأمر كما قال والله لقد سمعت منه هذا القول ، وشاهدت الفعل كما قال.

وقال العماد: عبأ السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وهو يمر بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحض على حظ الأبد، ويحث على الجلاد والجلد، قال: وكنت في جماعة من أهل الفضل، قد ركبنا في ذلك

اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة، ونحن على بغال بغير أهبة قتال، فرأينا العسكر مولياً، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخلياً فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل، ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه، وكل منا ذاهل عن شبعه وريه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق، وهو غير مفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق، ووصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان وجالوا جولة، ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا، فركبوا أكتافهم، وحكموا في رقابهم أسيافهم، وكان ميسرتنا عسكر سنجار والأسدية فما زالوا ولازالوا بل وصلوا وصالوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت الرياح بالجبال، وعاد من كان من الميمنة مثل تقي الدين وقايماز النجمي والحسام بن لاجين، ومن ثبت من أبطال المجاهدين، فلم يفلت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينج من آلافها إلا آحاد، وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداوية الذي كنا أطلقناه، وذكر أنهم في مائة ألف وعشرين ألفاً حين سألناه، ثم ضربنا عنقه —وقال في الفتح: وعشرة آلاف ــ قال العماد: ومن العجب أن الذين ثبتوا منا لهم لم يبلغوا ألفاً، فردوا مائة ألف وآتاهم الله قوة من بعد ضعف، وكان الواحد يقول: قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين، وتركتهم مصروعين، وكان السلطان من الثابتين في تلك الجولة، والكابتين لأهل الصوله، وقد بقي وحده عند تولي المسلمين، ولاشك أن الله أنزل ملائكته المسوّمين.

حكى بعضهم قال: كنت منهزماً من فارس مدجج قد لز بقربي حصانه، وهز لصلبي سنانه فأيست من البقاء، ثم أبطأت عليّ طعنته فالتفت فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى ومابالقرب أحد، فعرفت أنه نصر إلهي وصنع رباني.

قال: وعاد السلطان إلى مضاربه. وأمر بمواراة الشهداء ومن جملتهم

الفقيه أبو علي بن رواحه، وكان ،غزير الفضل قد أكمل الشجاعة والرجاحة، وهو شاعر مفلق وفقيه محقق، من ولد عبد الله بن رواحه الصحابي الأنصاري، في الشهادة والشعر معرق، فطرفه الأعلى يوم مؤته مع جعفر الطيار، وطرفة الأقرب يوم عكا في لقاء الكفار.

قال في البرق: وكان السلطان قد أنعم عليه في حلب بمزرعة، وكتبت توقيعه، وأراد الله تعويقه إذ قرب إلى الآخرة طريقه، وحملت توقيعه إلى السلطان تلك الليلة ليعلم فيه فما علم وراجعته في معناه فسكت وماتكلم، وكان ساعة الوقعة راكباً معنا ثم قال: وقوفنا يطول فمضى إلى خيمته يتودع فلما علم باندفاعنا ساق وراءنا فقطع عمره قبل أن يقطع الوادي، وكان قال لنا لما أصبح: رأيت رجلاً يحلق رأسي في المنام، فقلنا له: هذا من أضغاث الاحلام، فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام.

قلت: وليس هو من أولاد ابن رواحة الصحابي، ذاك لم يعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة، وقد بيناه في التاريخ، والله أعلم.

قال: ومنهم اسماعيل الصوفي الأرموي المكبس، وشيخ من الحاشية في بيت الطشت، وغلام في الخزانة أمين على البيت، وآخرون صودفوا عند التل فجاءتهم السعادة، وفجأتهم الشهادة وهؤلاء سوى من وقع في الوقعة، وذهب قبل الرجعة، وأجمع السلطان وذووا الآراء على أنه يصبح القوم، فتفقدوا العسكر فإذا هو قد غاب لما بان من الأمر وراب، وذلك أن غلمان العسكرية والأوباش ظنوا أن تلك الفورة هزيمة، فنهبوا الاثقال وعدّوها غنيمة، فمن عاد إلى رحله وجده منهوباً مسلوباً، وكان في ظنه أنه فرغ من لقاء خطب فلقي خطوباً، وأصبحنا وإذا العسكر مفترق والثابت قلق والآمن فرق، والغني معدم، والجريء متندم، فهذا خلف ماذهب من ماله ذاهب، وهذا لمن طلب الطريق بأثقاله طالب، فتفتر ذلك العزم، وتأخر ذلك الحكم، وانتعش الفرنج في تلك المدة

وانتشلوا من تلـك الشدة، وجاءتهم في البحر مراكب أخلفـت من عدم، وبنت ماهدم، وشكونا نتـن رائحة تلك الجيف فحملت على العجل إلى النهر ليشرب من صديـدها أهل الكفر، فحمل أكثر مـن خمسة آلاف جثه حملت إلى النار قبل يوم البعثـة، وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة عنـد خيم الأثقـال المضروبة، فسـار إليها رابـع رمضان، وأمـر أهل عكـا باغـلاق أبوابها، وإحكام أسبـابها، فوجد الفرنـج بذلك الفـرج، وشرعوا في حفـر خنـدق على معسكـرهـم حـوالي عكـا مـن البحـر إلى البحـر، وأخرجـوا ماكان في مـراكبهم من آلات الحصر، وفي كل يـوم يأتينا اليـزكية بخبرهم، وبما ظهر مـن أثرهم، والجد في تعميق الخندق وتتميـم حفرهم، فكان من قضاء الله أنـا أغفلناهم، وأمهلنا هم بل أهملنـاهم حتى عمقوا الحفور، ووثقوا مـن ترابها السور، فكانـوا يخندقون ويعمقون ويعملـون من تراب الحفـر حولهم سـوراً ، فعاد مخيمهـم بلداً مستـوراً معموراً، فملـؤوه بالستائر، ومنعـوه من الطير الطائر، وبنوه وأسسوه وستروه وتـرسوه، ورتبوا عليه رجالاً، ولم يتركـوا إليه لواغل مجالاً، وتركـوا فيه أبواباً وفـروجاً ليظهروا منهـا إذا أرادوا خـروجـا، ولما فـرغـوا مـن هـذا الأمـر اشتغلـوا بـالحصر، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال فإنه بعدما أضحك أبكى.

وجاء كتاب من الفـاضل إلى العماد جواباً عن كتابـه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه: «وعرفت مـاجرى على قضيته، فسبحت الله تعالى فإن من عجائب قدرته سلامة سيدنـا على ضعف حركته، والأمر كان عـظيماً، والمدفـوع أعظم، والسـلامة كـانت غـريبة إلا أن نقـول ولكن الله سلـم، والسلطان أعزه الله إذا سلـم فكل الناس قد سلموا، وإذا وجـد وقد عدم الناس كلهـم فقد وجدوا وماعـدموا، وكل جوهـر بالإضافة إليـه عرض ، وهـو جوهـر بـالحقيقة مـاعنـه من كـل جـوهر عـوض» ومـن كتاب لـه إلى السلطان أ وّله:(ثم أنزل الله سكينته على رسولـه وعلى المؤمنين)(٩٠)

الآيـة (ومـارميت اذ رميـت ولكن الله رمـى) [٩١] ورد الكتاب بخط
مـــــــــــــــولانـــــــــــــا مـــــــــن
معترك حربه وجـلاده وتوفيق جهاده،قبل أن تضـع الحرب أوزارها، وهرع الناس إلى المجلس العادلي والعزيزي يسقعـون الأخبار، ويستوضحون من وجوهها الأنوار، ويسألون كيف كانت عـاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النار، ويشكرون الله على سلامـة أديانهم، وقلوبهم وأبدانهم، وسـلامة سلطانهم، وماأدراك ماسلامـة سلطانهم، ونصرة كلمة ايمانهم، ودلائل الخير لاتخفى، وقد يقـرأ الكتاب ومـايلمح قارئه منـه حرفا، وتصـوّرّ الناس الأمـر الذي وقاهم الله شره وكفاهـم أمره.

فصل

في باقي حوادث السنة بمرج عكا وغيره

قال العماد: وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صورمقلعا محتويا على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة ورزمةمن الحرير، وجاءت حظوة حلوة، وغنيمة صفوة، وقد كان انكسر نشاطهم، وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك الحركة، فإنها أفضت بهم إلى الهلكة، فانهم مادامو رابضين، وعلى يد الصبر قابضين ، يتعذر الوصول إليهم، والدخول عليهم.

وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف:«والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين في تسكين ثأرهم، وتخريب عامرهم، ومادام البحر يمدّهم والبر لايصدهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيرة أهل اليقين، وماينقضي عجبنا من تظافر المشركين، وقعود المسلمين،فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمناد، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا،وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جارى جاره في مضمار الانجاد، وبارى نظيره في الجدّ والاجتهاد، واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح، ومافعلوا مافعلوا ولا بذلوا مابذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا سلك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك،يخرج بلد عن يده، وتمتدّ يد إلى بلده ،والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنواوفشلوا وغفلوا

وكسلوا ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة، ولو انثنى والعياذ بالله للاسلام عنان، أو خبا سنا ونبا سنان لما وجد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، من لدين الله يغار، ومن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحمية من الأقاصي والأداني، على أنا بحمد الله لنصره راجون، وله باخلاص السرّ وسرّ الخلاص مناجون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون».

قال العماد: وكان السلطان قد كتب إلى مصر يستدعي بأخيه العادل في رجال، فقدم علىه منتصف شوّال،وكتب أيضا في طلب الاسطول المصري، فقدمت خمسون قطعة مع حسام الدين لؤلؤ منتصف ذي القعدة، فجاءت فجأة على مراكب الفرنج وبغتتها وسحقتها وبددتها وكسبتهاو سلبتها، وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغلالهم، قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاته، وشكرت في العدوّ نكاياته، وقد تفرد بغزواته لم يشاركه فيهاأحد، وهو الذي ردّ الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجاز، ولم يترك منهم عينا تطرف، ولم يبق لهم دليلا يعرف، وغزواته مشهوره وفتكاته مذكوره، وأمواله مبذولة وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلولة.

قال: ونقل السلطان الى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم، وعددهم وأزوادهم، واستظهر البلد أيضا برجال الأسطول، وكانوا زهاء عشرة آلاف، هذا ورجاله المسلمين يتطرقون إليهم ليلا، ويذيقونهم من القتل والأسر والسرقة والإسار.

قال: ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العدّة، وتقوية النجدة بكل مايمكنه من أسباب الباس والشدة، سير من أحمال النفط الأبيض—مع عزة وجوده— ماوجده ، ومن التراس والرماح من كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده، وكتبنا في شكره:«وصل السلاح وتم

للاسلام من قروح الكفر الاقتراح ، فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العدد، ومن العجب أن تفنى العدة وما يفنى العداة، وتنمو على الحصاد كأنها النبات، فالبحر يمدهم والكفر إلى الردى يردهم»

ومن كتاب إلى الديوان:« قد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه، وبسط الكفر جناحيه وقتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روّعت الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ورامح ونابل، فما أثر ذلك في نقصهم، ولا أرث إلاّ نار حرصهم، وليس هذا العدّو بواحد فيضجع فيه التدبير ويأتي عليه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من في ديار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلد ولا جزيرة ولا خطة صغيرة ولا كبيرة ، إلاّ جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرز ساكنها وبرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونقضت خزائنها، وانفضت معادنها، وحملت ذخائرها، وبذلت أخائرها، ونثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها، وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها، وتصلبت للصليب السليب، وتعصبت للمصاب المصيب، ونادوا في نواديهم بأن البلاد هي بلادهم، وأن اخوانهم بالقدس أبارهم الاسلام وأبادهم، وإنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الاسلام وهبت له ذنوبه، وذهبت عنه عيوبه، ومن عجز عن السفر سفر بعدّته وثروته من قدر، فجاؤوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد،وتواصلت منهم الامداد»

قال:« ووصلت في مركب ثلاثمائة امرأة فرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجزائر، واغتربن لاسعاف الغرباء، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للاشقياء، وانهن لايمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لايتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة مافوقها قربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة».

قال:«وأبـق من عسكـرنا مـن المماليك الأغبيـاء، والمدابير الجهلاء جماعـة جذبهم الهوى، واتبعـوا من غوى، فمنهـم من رضي للـذة بالذلـة، ومنهم مـن ندم على الـزلة، فتحيـل في النقلة، فـإن يد مـن لايرتـدلاتمتدّ، وأمـر الهارب إليهم لاتهامه يشتدّ، وباب الهوى عليه يستـدّ، وماعند الفرنج على الغرباء إذا أمكنت منها العزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبـان المضيفين من فرجها فـرج». قال:ووصلت أيضاً في البحـر امرأة كبيرة القدر، وافـرة الوفر، وفي جماعتهـا خمسمائة فارس بخيولهم وأتبـاعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلة لكل مـايحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بما تنفقـه فيهم على المعـونـة، وهـم يركبـون بـركبـاتها ، ويحملون بحمـلاتها، ويثبون لـوثباتها، وفي الفـرنج نساء فـوارس، لهن دروع وقوانـس، وهن في زي الرجـال يبرزون في حومـة القتال ويعملـن على أرباب الحجـى، وهنّ ربات الحجال، وكل هذا يعتقدن أنه عبادة، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ويجعنله لهنّ عادة، فسبحان الذي أضلهنّ، وعن نهج الهدى أزلهنّ».

وفي يوم الـوقعة طلعـت منهنّ نسـوة لهنّ بالفـرسان أسـوة، وفيهنّ مـع لينهـنّ قسوة، وليس لهنّ سـوى السوابـغ كسوة، فما عـرفـن حتى سلبـن وعـرّين، ومنهـنّ عـدّة سبين واشترين، وأمـا العجـائز فقد امتـلأت بهنّ المراكـز وهن يشـدّدن تـارة وتـارة يرخين، ويحرضـن وينخين، ويقلـن إن الصليب لايرضـى إلا بالإباء، وإنه لابقاء إلا بالفنـاء، وإن قبر معبودهم تحت استيـلاء الأعـداء، فـانظـر الى الاتفـاق في الضـلال بين الـرجـال والنساء».

قال: وفي آخرهـذه السنة ندب السلطان الرسـل إلى الاقطار والأمصار للاستنفـار والاستنصـار، وبـث الكتـب وكتب بـالبـث، وحـث الرسـل وراسل بالحث، وسرّح عـدنان النجاب إلى سيف الاسـلام باليمن، وشرح في الكتـاب إليه مـاجرى مـن حوادث الـزمن، ووصـف له جليـة الحال، وطلـب منه الإعـانة بـالمال، وكوتـب مظفر الـدين قـزل أرسلان بهمـذان

ببعث مادنا منه عزمه ودان، وحكم على كل ملك بحجة الايمان، وهدى الى محجة الاحسان، ووصل الى السلطان رسول ابن أخيه لأمه ركن الدين طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه، وهو آخر السلاطين السلجوقية يتظلم من عمه قزل أرسلان، ويطلب من السلطان إعانته، فاعتذر السلطان بما هو عليه من شغل الجهاد مع الكفار، وأرسل رسولاً في السفارة بينه وبين عمه جمال الدين أبا الفتح اسماعيل بن محمد ابن عبد، لكونه نسيب العماد، وكتب إلى صاحب إربل وإلى حسن بن قفجاق ونائبه بشهرزور بالتوفر على خدمته، والارتياد لمصلحته، واشياعه ومعونته.

قال: وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين سنقر الخلاطي أخص مماليك السلطان وأخلصهم، وقد قدّمه على مماليكه، وكانت وفاته ليلة الاثنين والعشرين من رجب.

قال: وفي ثالث عشر شعبان توفي الأمير حسام الدين طمان صاحب الرقة، وهو من المجاهدين المجتهدين، والأتقياء المتجهدين، ولما حضرته الوفاة تأسف من موته على فراشه،وطلب حصانه ليركبه وينتقل سعيدا شهيداً إلى معاده من معاشه.

قال: وفي تاسع عشر شعبان توفي الأمير عز الدين موسك بن جكر، وهو ابن خال السلطان، وهومن أكابر أقاربه، ومقدّمي كتائبه، وكان للقرآن حافظا، وعلى الإحسان محافظا، ولقضاء حقوق الناس ملاحظاً، ولم يزل للسلطان في هذه الغزوات ملازما، وعلى قمع جمع الكفر عازما، ولما اشتدّمرضه استأذن في الدخول إلى دمشق ودفن بجبل قاسيون.

قال: وفي حادي عشر رمضان توفي بدمشق القاضي شرف الدين بن أبي عصرون،ومولده في أوائل سنةاثنتين وتسعين وأربعمائة، فبلغ عمره

ثلاثا وتسعين سنة ونصفا، وأضر قبل وفاته مدّة عشر سنين، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بدمشق قبالة داره بينهما عرض الطريق، وكان شيخ المذهب، وقد ختمت به الفتيا، وأوحشت غيبته الدين والدنيا.

قال: وفي تاسع ذي الحجة توفي الأمير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري في العسكر بمنزلة الخروبة، وكان صاحب أسد الدين شيركوه، ومضى معه إلى مصر حين ملكها، ثم اختص بالسلطان بعده،وتولى حله وعقده، ودرّت بوساطته وشفاعته للناس أرزاق، ونقل إلى القدس فدفن بظاهره، ولقد كان من الأعيان،ومن أهل الجدّ في نصرة الايمان ، فنقله الله إلى الجنان.

قال: وفي هذه السنة أقطع السلطان مملوكه مجاهد الدين إياز ولاية شهرزور وأعمالها، وولى جمال الدين بن المحسن نقابة الاشراف بدمشق.

قال: وفي عاشر جمادى الأولى منها، كان مولد ناصر الدين محمد بن الملك العزيز بمصر، الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في محرّم سنة خمس وتسعين، وورد بذلك إلى السلطان جدّه كتاب كريم فاضلي من مصر نسخته:« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رشاده وارشاده، وزاد سعده واسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده واعداده، واشتدّ باعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده، حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده، وينهي ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولداً مباركا عليا، ذكراً سوياً، براً ذكيا، تقيا نقيا، من ذرية كريمة(بعضها من بعض) (٩٢) ، ومن نبت شريف كادت ولاته تكون ولاة في السماء، ومماليكه تكون ملوكاً في الأرض، وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد أولى العدد، وبه وبآله يعز الله أهل الجمعة ويذل أهل الأحد »ثم ذكر باقي الكتاب

فصل

في ورود خبر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد:ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتب من ولده الظاهر، يخبر فيها أنه قد صح إن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا الف، وقيل مائتان وستون ألفا، يريد البلاد الاسلامية، فاشتدّ ذلك على السلطان وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار،وصاحب الموصل، وصاحب إربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي رمضان، ويسر الله تعالى الوصول في الجماعة، وابلاغ الرسالة إليهم فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم، وسير صاحب الموصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره، ووعد الديوان بكل جميل، وعدت إليه خامس ربيع الآول سنة ست وثمانين، وسبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم وتأهبهم للمسير،فسر بذلك.

وقال العماد في كتاب الفتح: ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قصد العبور إلى بلاد الإسلام، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام، وفيهم ستون ألف فارس مدّرع، ومعهم ملوك وكنود، وكل شيطان لربه كنود، وكتب صاحب قلعة الروم مقدّم الأرمن وهو في قلعته على الفرات، وبين أهل الذمة في المأمن يبدي تنصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحتراقا، ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عشرة، وأبرق في كتابه وأرعد، وأبدع في خطابه وأبعد، ولاشك أنه إلى جنسه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا النبأ، قيل إنه عظيم، وورد هذا الخبر، وخيل إنه أليم، كاد الناس يضطربون على أنهم يصدّقون ويكذبون ، ومن طرف

كل حبل من الرأي يجذبون، وقلنا: إن وضح هذا الخطر، وصح هذا الخبر، فالمسلمون يقومون لنا ولايقعدون ، ويغضبون لله ولا يرضون أنهم لايعضدون، على أن الله ناصرنا، ومؤازرنا ومظاهرنا، وحققنا باظهار القوّة لمن استوحش التأنيس ، وبثثنا بالارسال إلى بلاد الروم عيونا وجواسيس، وندبنا رسل الاستنصار، وبعثنا كتب الاستنفار الى جميع الأمصار والأقطار، وقلنا ماهذه المرّة الى مرّه، لايسيغها إلاّ كل مرّ أبيّ، وماهذه الكرة مثل كل كرة، ولايحضرنا إلا كل كميش كمي.

قال: وعوّل السلطان على ارسال القاضي بهاء الدين بن شداد يوسف ابن رافع بن تميم، ليكون كتابه إلى الديوان العزيز مع رسول كريم، وقال له: ماأحتاج أوصي، وأنت توفي القول وتستقصي، وجعل له إلى كل طرف في طريقه رسالة، وأودعه إليه مقالة، فسار ووصل إلى حلب والقاضي ضياءالدين بن الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عاد، وذكر أنه قد بلغ المراد، فما هذا الرسول الرائح، ووصل وهو مغتاظ وتغير عليّ، ونسب انفاذ القاضي بهاء الدين إليّ، ثم اجتمع بالسلطان وندّمه على ماقدّمه، وأعلمه بما عمله وعلمه، وقال له: الشغل قد فرغ، والقصد قد بلغ، وقرّر مع السلطان أمراً ، وعاد على النجب إلى بغداد، وصادف بها القاضي بهاء الدين بن شداد، فلم يسفر أمر سفارته عن سداد، وقيل: جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره، وننديه فيما نتخيره.

وقال في كتاب البرق: وصل الخبر بخروج ملك الألمان من بلاده في مائتي ألف دارع، وفي راجل في دبيب رجل الدبا، في عدد رمل اللوا، وأقام بمحشرهم القيامة، واستثارهم لثار كنيستهم بالقدس قيامة، وساروا في شهور حتى وصلوا قسطنطينية، وكان ملك الروم يكتب إلينا بأخبارهم ونبأ خروجهم من ديارهم، ويقول: أنا لا أمكنهم من العبور، فلما جاؤوا لم يقدر على منعهم، فصدّعنهم الأزواد، وحرمهم الإسعاد، وعبروا الخليج وقد كثرت أمدادهم، وقلت أزوادهم، ولما وصلوا إلى

حدود بلاد الاسلام، وسلكوا في الأودية والآجام والوهود والآكام، تسلمهم تركمان الأوج، وتراكم الثلوج وشتا الكلاب في كلب الشتا، واحتاجوا إلى أكل الدواب، واحراق عددهم لإعواز الأحطاب، وعدموا العلف، وماوجدوا الخلف، ومناهل الزلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون، ومن البلاء ناهلون، لايقطعون في يومين فرسخا، وقد أذهب الله عنهم البركة، وصعب عليهم الحركة، وخرج الامر عن حسابهم، وهم كل يوم في نقص أنفسهم ودوابهم، وكانوا يدفنون من اعلاقهم النفيسة، وعددهم الكريمة الرئيسة، مايعجزون عن نقله، ولايخفون بثقله، فاتخذوا لأسرارها من اضلاع تلك الشعاب، وصدور تلك الوهاد والهضاب ضمائر لاتبوح بها أبداً، ولاتطلع على مكنونها ومدفونها أحدا، هذا وبحرهم عباب الموج، وهباب الفوج، فلما خلصوا بعد أشهر كأنهم زخروا بموج سبعة أبحر، هذا وقدنقص شطرهم، وانقطع ظهرهم، لكنهم عرضوا في الستين ألف مدّرع مدجج مقنع، ذلك وقد باد أكثر راجلهم، وترجل معظم أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

قلت: ومن قصيدة للحكيم أبي الفضل الجلياني:

يامنقذ القدس من أيدي جبابرة
قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فاكذبوا كذبهم في وصف ربهم
وصدّق الوعد مأمونا تحوّله
أمارأيت ابن أيوب استقل بما
يعيي الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد خار والفتكته
فاستنفروا كل مرهوب تغلغله
لما سبى القدس قالوا: كيف نتركها
والرب في حفر منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى
لينصروا القبر والأقدار تخذله

وكـــم تـــرحـــل منهـــم فيلـــق بفـــلا
إلى الخوامـــع ألقـــاه تـــرحلـــه
استصرخـــوا الأهـــل والعـــدوى تمزقهـــم
واستكثـــروا المال والهيجـــا تنفلـــه
هـــم الفـــراش لهيـــب الحرب تصرعـــه
كلما لـــج صـــدمـــا جـــل مقتلـــه
سيـــف امـــام فلسطين يـــرى امـــا
خلـــف البحـــار لقـــد أمهـــاه صيقلـــه
كـــم أعـــدّوا وكـــم قـــد فـــل جمعهـــم
مـــن غير ضرب ولا طعـــن يـــزيلـــه
وإنما اســـم صـــلاح الـــديـــن يـــذكـــر في
جيـــش العـــدّو فيسبيهـــم تخيلـــه

ثم دخلت سنة ست وثمانين

قال العماد رحمه الله: والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة في خيامه المضروبة على الحالة المحبوبه، وعنده العادل والأفضل والمظفر، وعكا محصورة، وانقضت هذه السنة، وهو على مرابطة المحاصرين لعكا، واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر الغريبة إلى بلادها البعيدة والقريبة لهجوم الشتاء وتوالي الأنداء والأنواء، وحالت الوحول عن الركوب والنزول، وكانت نوب اليزك مترتبة، والأحوال متهذبة، وربما ركب السلطان يوماً للقنص بالبزاة، ثم يعود لانتهاز فرصة الغزاة، ثم وقعت وقعة الرمل، وذلك أنه ركب يوما في صفر فتصيد، وطاب له قرب القنص فأبعد، واليزكية على الرمل وساحل البحر، فخرج الفرنج في وقت العصر في عدد لايدخل في الحصر، وتسامع أصحابنا بهم، فزحفوا اليهم، وحكموا عليهم، وطردوا عليهم إلى خيامهم، وأخذوا من خلفهم وأمامهم ، ولهم في كل دفعة من العدّو قلائع ، وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع، حتى فني النشاب وبقى الانتشاب، وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب، والفرنج لايعجزهم إلا الرما ولايهتكهم إلا الاصما، فلما أنسوا بخلوا الجعاب، تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب، وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبث بهم يد القهر، فتبث من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، واستشهد جماعة من الشجعان، وذلك أنهم لما ردّوا والفرنج قلعوا فرسانا، وصرعوا أقرانا، فنزلوا بعد فرسهم بسلب لبسهم، فمرّت بهم الحملة في الأوبه، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل وافترق الجمعان، وكثر التأسف على من فقد، ومنهم الحاجب أيد غمش المجدي.

قال: ومن عجائب هذه الوقعة أن مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر عثر به جواده، فقبض من أسره على شعره ليجذبه وسل آخر سيفه

ليضربه، فضرب يد قابض شعره فسيبه، واشتدّ سرا سنقر يعدو ، وهم خلفه فلم يدركوه، وعاد السلطان من الصيد وقد انفصل الأمر.

قال: وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الاوّل تسلم شقيف أرنون بالأمان، وكان الحصار قد استمر عليه حتى فني زاده، وصاحبه أرناط في الأسر، فسلمه بخلاصه وصار إلى صور.

قال:واغتنم السلطان هيجان البحر، وحضور مراكب الاسطول من مصر، فما زال يقوّي عكا بتسيير الغلات والقوّات إليها في المراكب، وملأها بالذخائر والأسلحة والكماة، فلما سكن البحر عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، ودبت عقاربها وأفاعيها، وشدّت مراكبنا في موانيها، وانقطع خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد، فانتدبت العوّام بالسباحة، وحملهم على ذلك من السلطان السماحة، حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتب وطيور، ونكتب إليهم، ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها،وكان في العسكر من اتخذ حماما يطوف على خيمته، وينزل في منزلته، وعمل لها برجا من خشب، وهوادي من قصب، ويدرّجها على الطيران من البعد، وكنا نقول: ماهذا الولع، بما لاينفع حتى جاءت نوبة عكا فنفعت، وشفت الغليل ونقعت، وأتت بالكتب سارحة شارحة، وكنا نطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قل وجودها لكثرة الارسال، ولقد عطب عوّامون، فما ارتدع الباقون، ومنهم من سلم مراراً من القوم فاجترأ وأنس بالعوم.

فصل

في قدوم الملوك وحريق الأبراج

قال العماد: ولما انقضى الشتاء،وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الاسلامية من البلاد، فكان أوّل من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم بن المقدّم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتركمان،فرحل السلطان وتقدّم وعزم على طلب العدّو وصمم، ونزل على تل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأوّل، ورتب عسكره فكان تقي الدين في آخر الميمنة، والعادل في آخر الميسرة، والأفضل في أوّل ميمنة القلب، وأخوه الظافر في أوّل الميسرة على الجنب، ثم وصل الظاهر في عساكرحلب، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاوّل، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، ووصل معه حملان من النفط الطيار ، وحملان من القنا الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار، يقترض على الديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار، فاعتد السلطان بكل ماأحضره ، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى ردّ التوقيع وقال كل مامعي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان ، وأركب الرسول معه مراراً وأراه مبارك النزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بما يشاهد، ويبين له المجتهد المجاهد، وأقام طويلا ثم استأذن في العود فرجع.

وقال القاضي ابن شداد: قبل السلطان جميع ماوصل مع الرسول، واستعفى من الرقعة والتثقيل بها. قال: وفي ذلك اليوم بلغ السلطان أن

الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالا شديدا إلى الليل، وخاف أن يهجم العدّو البلد، فانتقل إلى تل الحجل في خامس عشر ربيع الاوّل للقرب، قال: وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوّام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدّوبعض الخنندق، وقد قوي عزم العدّو على منازلة البلد ومضايقته، فجدّد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول، وفي سحر ليلة سابع عشري ربيع الاوّل وصل ولده الظاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين، وكان السلطان رحمه الله مايقدم عليه عسكر إلاّ ويعرضهم ويسير بهم إلى العدّو، وينزل بهم في خيمته ويمدّ لهم الطعام وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرمين، قال: وكان العدّو قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ماذكر بحيث لاتنفذ فيها النيران، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار، وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة مايزيد على خمسمائة نفر على ماقيل ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد مالايمكن شرحه، وأيس الناس من البلد بالكلية، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه، وكان قد فرغ عملها، ولم يبق إلاّ جرّها قريب السور، وكان السلطان رحمه الله قد أعمل فكره في إحراقها واهلاكها، وجمع الصناع من ا لزراقين والنفاطين، وباحثهم في الاجتهاد في احراقها، ووعدهم عليه بالاموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضاقت حيلهم عن ذلك، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي فذكر أن له صناعة في احراقها، وأنه إن أمكن من الدخول إلى عكا وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها فحصل له جميع ماطلبه ودخل الى عكا وطبخ تلك الأدوية مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب البرج الواحد يوم وصول الملك الظاهر بقدر فاشتعل

من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب، فبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثاني، والثالث بالثالث فاحترقا كالأوّل، وركب السلطان والعساكر وسار إليهم وانتظر ان يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله ﷺ:« من فتح له باب خير فلينتهزه»، فلم يظهر العدّو من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليل، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لايخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم، والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، وهو ابن أخي نور الدين رحمه الله وصهره وزوج ابنته، فلقيه السلطان بالإحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه،وسار به حتى أوقفه على العدّو، وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدّم له من التحف واللطائف مالا يقدر عليه غيره، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر، وفي سابع جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، فلقيه السلطان وأنزله إلى جانب عمه عماد الدين. وفي تاسع جمادى الأولى وصل ابن صاحب الموصل، وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، نائبا عن أبيه، ففرح السلطان به فرحا شديدا وتلقاه من بعيد هو وأهله، واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة، وكارمه مكارمة عظيمة، وقدّم له تحفا حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين علي، فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعنى في الميسرة.

وذكر العماد قدوم هـؤلاء الملوك بمعنى ماتقـدّم قال: وكان الفرنـج مذ نـزلـوا على عكـا صممـوا على الاقامـة والحصر، فشرعـوا في بنـاء الأبـراج العظام العاليـة، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافيـة، واقطاع الحديد، وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مـواضع من أقطار البلد، وكل برج لابد له في أركـانه من أربـع اسطوانات عـاليات غـلاظ جافيات، طـول كل واحدة خمسون ذراعا ليشرف على ارتفاع سـور البلد، وبسطوها على دوائر العجل، ثم كسوهـا بعد الحديد والوثوق الشديـد بجلود البقر والسلوخ، وكل يـوم يقربـونها، ولو ذراعا على حسـب التيسير في تسييرها، وسقـوها بالخل والخمـر، وكشفوا مـن جوانبهـا الثلاثـة سور البلـد وشرعوا في طـم الخندق، وجـاء عوّام من عكـا فأخبر السلطان فـركب بالعسكـر ولازمهم من الجمعـة إلى الجمعة يقاتلهم صبـاح مساء ليشغلهم، فـافترقوا قسمين فـريق للقتـال وفريـق آخر مـع الأبـرا ج، فأشفـى البلد وبقـي له رمـق ضعيـف، ورميـت الأبـراج بكـل قارورة نفـط فما أثـرت، ولم نشعـر يـوم السبـت الثامـن والعشرين مـن ربيـع الأوّل بالأبـراج إلاّ وقد اشتعلـت، والتهبت ووقعت، وكانـت آية من قدرة الله ظهرت، وذلك أنـه كان بعكا شاب من أهل دمشق يعرف بعلي ابن عـريف النحاسن، وكان أبدا يجمع آلات الزراقين مـولعا، ولتحصيـل عقاقيرها متتبعـا، وكل من عـرفه عـذله وانكر عمله، وكـان قد ألف منها مقاديـر وقدورا، وملأ بالغيـظ من أهل تلـك الصناعـة صـدورا، ولم يكن النفـط من صنـاعتـه، ولكن الله وفقـه لسعـادته، فلما كـان يـوم حـريقها جـاء إلى الأمير قـراقـوش وهو مغتـاظ واخـلاقه فظـاظ غلاظ، وقـال: أتـأذن لي في تصويـب المنجنيق لأحـرق البرج والله ولي التوفيق، فـزجره وزبره ونهاه ونهره، وقال صنـاع: هذا الشغل قد خـاروا وحاروا، وبعـد ما انجـدوا أغاروا، فقـال الناس: دعـه وشأنـه، ومايدريك أن الله وفقـه وأعانه، فرمى ابن العـريف إلى البرج الأوّل قدور نفـط خاليـة من نـار حتى عـرف انه سقـاه وروّاه، ثم رمـاه بقدر محرقـه، وأردفهـا بأخـرى مـزهقة، فتسلطـت النـارعلى طبقـاتها، فأضرم على أهـل

السعير سعيرا(وكان يوما على الكافرين عسيرا) [٩٣] ثم أحرق الثاني والثالث، فاجتمع عليه الأصحاب يفدّونه ومن الأولياء يعدّونه، وحملوه بعد ذلك إلى السلطان فلم يقبل عطاء، وقال: عملته لله فما أريد به من سواه جزاء، وقيل احترق في البرج الأوّل سبعون فارسا بعدّتها فحبطت أعمالهم وخابت آمالهم، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها، ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت، وكشفوا عن الستائر التي تهتكت، فأخذوا ماوجدوا، وحصلوا مانشدوا.

قال: وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شوانى الاسطول والاسراع به في الوصول، فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر، فاستظهر به الأسطول الأوّل الذي بالثغر ، فركب السلطان بجميع كتائبه، وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتغل الفرنج عنا بهادهمهم في البحر، فجدّوا في الامر، وجهزوا اسطولا بعدد الرجال وعدد القتال ، وخرجوا لتلقي الأسطول الواصل، وقابلوا الحق بالباطل، وجاءت شواني المسلمين فنطحت وطحنت، وأخذت مركبا للعدّو برجاله، وأخذوا لنا قطعة، ومازالت الحرب قرعة وقرعة، وصرعة وصرعه، حتى دخل الليل فتحاجز الفريقان، وتفرّق الاسطولان، وكانت المقتلة في الكفر شديدة والسطوة مبيدة.

وقال القاضي ابن شداد: لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت في البحر قلوع كثيرة، وكان رحمه الله في نظرة الاسطول من مصر فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله، فعلم أنه هو ، فركب والناس في خدمته وتعبأ تعبية القتال ، وقصده مضايقة العدّو ليشغله عن قصد الأسطول، ولما علم العدّوبالاسطول استعدّ له وعمر اسطوله لقتاله ومنعه من دخول عكا، ولما خرج اسطول العدّو واشتدّ

السلطـان في قتالهم مـن خارج، وسـار الناس على جـانب البحـر تقويـة للأسطول واينـاسا له ولرجـاله التقى الاسطولان في البحـر، والعسكران في البر واضطـرمت نـار الحرب واستعـرت، وباع كـل فريـق روحـه براحتـه الأخروية، وجرى قتال شديد أقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخذ منـه شيني وقتـل من بـه،ونهب جميـع مافيـه، وظفـر من العـدّو بمركـب أيضا، كـان واصلا مـن قسطنطينية، ودخـل الاسطول المنصـور إلى عكا، وكان قـد صحبه مراكـب من الساحل فيهـا مير وذخائر، وطابـت قلوب أهل البلد بـذلك، وانشرحت صدورهـم، فـان الضائقة كانـت قد أخذت منهم، واتصل القتـال بين العسكرين من خـارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل، وعاد كـل فريق إلى خيمه، وقـد قتل من عدّو الله وجـرح في ذلك اليوم خلق عظيـم، فإنهم قاتلوا في ثلاثـة مواضع، فإن أهـل البلد اشتدّوا في قتـالهم ليشغلـوهـــم عـن الأسطـول أيضـا، والاسطـــولان مقـابـلان، والعسكر من البر يقاتلهم، وكان النصر بحمد الله للمسلمين.

قال العماد: وقتلنـا منهم مـدّة مقامنـا على عكا سنتين أكثـر من ستين ألف، ورزأنـاهم بكل حتـف، وكلما أبادوا في البر، زادوا من البحـر، وكم جسروا وخسروا، وقتلـوا وأسروا، وهزمـوا وكسروا، وخلفهـم خلف، ويقـوم مقام مائتهـم ألف، وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم، وقطعنـا أرزاقهم ووصلنا آجالهم.

فصل

فيما كان من أمر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد: تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان، وأنه انتهض للقائه جمع عظيم من التركمان، وقصدوا منعه من عبور النهر، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه، وعدم مقدّم لهم يجمع كلمتهم، وكان قليج أرسلان يظهر اشفاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر من الفساد ماكان أضمره ووافقه وأعطاه رهائن معه على أنه ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون، وأنفذمعه أدلة يدلون به وعراهم في الطريق جوع عظيم وأعوزهم الزاد وقل بهم الظهر حتى أنهم ألقوا بعض أقمشتهم، ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات وسلاح عجزوا عن حملها، وجعلوها بيدرا واحدا وأضرموا فيها النار لتتلف ولاينتفع بها أحد، وأنها بقيت بعد ذلك رابية من حديد، وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طرسوس، فأقاموا على نهر ليعبروه وأن ملكهم الملعون عنّ له أن يسبح فيه، وكان ماء شديد البرد، وكان ذلك عقيب مانال من التعب، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتدّ به إلى أن قتله، ولما رأى ماحل به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته، ولما مات أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل، وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القدس الشريف ويدفنوه فيه، وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه، فإن ولده الأكبر كان خلفه في بلاده، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه، واستقر قدم ولده الحاضر في تقدّمه في العسكر، ولما أحس لافون بما جرى عليهم من الخلل وماحل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم، مارأى أن يلقي نفسه بينهم فإنه لايعلم كيف يكون الأمر، وهم فرنج وهو أرمني،فاعتصم عنهم في بعض قلاعه المنيعة، ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكاغيكوس، وهو مقدّم

الأرمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات، ومعنى هذا الاسم الخليفة، ونسخة الكتاب:«كتاب الداعي المخلص الكاغيوس مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر، جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، من أمر ملك الألمان وماجرى له عند ظهوره، وذلك أنه أوّل ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر غصبا، ثم دخل أرض مقدّم الروم وفتح البلاد ونهبها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهباً وخمسين قنطارا فضة، وثياب أطلس مبلغا عظيما، واغتصب المراكب، وعدى بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، وردّ الرهائن وبقي ثلاثة أيام سائراً وتركمان الأوج يلقونه بالاغنام والابقار الخيل والبضائع، فتداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركمان وبينهم، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به ملك الألمان وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيما من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل، وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده ومالقيه في طريقه، وأنه لابدّ يجتاز بهذه الديار اختياراً أوكرها، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك خاتمه وصحبته ماسأل، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه، وكانت الوصية معهم أن يحرّفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعرّفوه الاحوال أبى الانحراف، ثم كثر عليه

العساكر والجموع ونزل على شط بعض الأنهر وأكل خبزاً ونام ساعة وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج وكان أمر الله أنه تحرّك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياما قلائل ومات، وأما لافون فكان سائراً يتلقى الملك، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدّموا اليه وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأكدت قواعده، وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال: إن أبي كان شيخا كبيراً وانما قصد هذه الديار لأ جل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعاينت المشاق في هذه الطريق مع من أطاعني، والا كنت بدأت بقصد دياره واستعطف لافون، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة، وفي الجملة هم في عدد كثير، ولقدعرض عسكره فكان في اثنين وأربعين ألف مجفجفاً وأما الرجالة فلا يحصى عددهم، هم أجناس متفاوتة، وخلق غريبة، وهم على قصد عظيم، وجدّ في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة، ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم عليه، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه، وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه، وكل ذلك كان حزنا على بيت المقدس، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدّة طويلة وحرّموها على أنفسهم ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الاكابر ذلك، وهم على الذل والشقاء، والتعب على حال عظيم».

وقال العماد: لما قاربوا بلاد عز الدين قليج أرسلان نهض إليهم ابنه قطب الدين ملك شاه،فوقع بينهم الحرب، ثم اندفع عنهم إلى مدينة قونية، فساقوا وراءه ودخلوها وحرقوا أسواقها ونزلوها، فنفذوا إلى

السلطان قليج أرسلان: إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنما ثرنا لثأر بيت المقدس، ونفذوا اليه هدايا وطلبوا الهدنة فهادنهم، فتقوّوا من تلك البلاد بما أرادوا من العدد والأزواد، وأنفذ قليج الدين أرسلان وابنه يعتذران الى السلطان من تمكينهم ثم العبور، وانهم غلبوا على ذلك، ثم ان الالمانيةطلبوا من قليج أرسلان إنفاذ جماعة من الأمراء معهم يمنعونهم من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بلاد الأرمن، فنفذ معهم خمسة وعشرين، ووافق ذلك غرض قطب الدين، فإنه كان كارها لجماعة من المقدّمين فتقدّم إليهم بأن يكونوا في صحبة ملك الألمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الغرر، وورّطهم في الضرر، فإنهم ماقدروا في الطريق على دفع كل سارق، وقد تبعهم اللصوص حتى وصلوا إلى بلاد الأرمن ومقدّمهم لافون بن أصطفان بن لاون، فأخذوا أولئك الرهائن وقيدوهم وجعلوهم في الاسر وجرّدوهم، فمنهم من خلص بعد حين بمال جزيل، ومنهم من بقي مأسورا حتى أتاه اليقين، ووصل مقدّم الأرمن إلى خدمته، ودخل في طاعته، وهداهم لمقصده، وقام لهم بالضيافات والعلوفات، وذلك في طرسوس، فتمكنوا بها ليريحوا النفوس، فعن لملك الالمان أن يسبح في النهر لإماطة مابه من الوضر، فعرض له مرض سلك به في سقر، وقيل: لما عبرت جموعه النهر ازدحموا والتطم الموج بهم واقتحموا، وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده، ويتبعه من بعده، فنزل على مخاضة ذات مخافة، لايخلو من هجمها من آفة، فجرى إليها، واجترأ عليها، فجذبته سورة الماء إلى شجرة شجت رأسه وبجت أنفاسه، وأخرجوه ونفسه على الخروج، وعمره على الدروج، فتسلم مالك ملك الألمان بآله وأحماله إلى جهنم، وجلس ابنه مكانه، واتبع شانه، واستتبع رجاله وفرسانه، وقيل عرض عسكره في نيف وأربعين ألف كمي، وانقطع عنه ابن لاون واختلف عليه أصحاب أبيه ميلا منهم إلى أخيه، وساروا على سمت انطاكية في فرق ثلاث كأنهم من المرض قد نبشوا من أجداث، وأكثرهم حملة عصيّ وركاب حمير، وكل بالأرض التي يسلكها

غير خبير، فتبرم بهم صاحب أنطاكية، وثقلت وطأتهم المفاجئة، وحسن لهم طريق بلاد حلب فلم يروا ذلك الصوب من أرب، وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل إليها ماله وخزائنه وأثقاله، فأخلاها له وسلمها اليه طمعا في ماله، وأموال رجاله، وكان على ماحدسه فإنه لم يعد إليها، واستولى الابرنس بأنطاكية عليها، وجاءت فرقة منهم ليلا إلى حصن بغراس، وظنوا أنه في أيدي أجناسهم الأنجاس، ففتح والي القلعة الباب، وأخرج الاصحاب، وتسلم تلك الأموال بأحمالها والصناديق بأقفالها، وأسر منهم وقتل كثير، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندها إلى طرقهم، وفرقوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغياض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة، ولايرى من رفقائهم إغاثة، فهانت الألمانيةبعد تلك المهابة في الأنفس، وباعوهم في الاسواق بالثمن الأبخس، ولما تكامل وصول السالمين إلى أنطاكية، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلة واللاذقية، فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا، فما وصلوا إلى طرابلس إلاّ في خف ولم يسف ممن جاء مع الملك غير ألف، وجاؤوا إلى النازلين على عكا فغرقوافي لجهم، وخمدوا في وهجهم، ثم هلك على عكا بعد انقضاء مدّة، واقتضاء شدّة، بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين.

وقال في الفتح: وجبن الملك عن السير على الطريق لما لقيت جموعه في طرقاتهم من التفريق، فركب البحر في عدد يسير لايزيد على الألف، برعب قلب وقصور يد ورغم، أنف، واختلط مع الفرنج على عكا فسقط وسخط حكمه، وهلك بعد قليل، ولم يحظ بنقع غليل،

وقال القاضي ابن شدّاد: مرض ولد ملك الألمان الذي قام مقامه مرضاًعظيماً، وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون داوياً، وجهز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدّمها كند عظيم عندهم، وان عسكر بغراس مع

قلته أخذ منهم مائتي رجل نهبا وقهراً، وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد، وقلة الخيل والظهر ، والعدد والالآت، ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الاسلامية أنفذوا إليهم عسكرا يكشفون أخبارهم، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم، وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس، ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة، قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ماوجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا إلا النادر، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أقمنا بمرج وخم أياما وقلت أزوادنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها،ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية، وطمع لافون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه،ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض.

قال:ولما تحقق السلطان وصول ملك الالمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الاسلامية، جمع عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدّو المقابل بباقي العسكر المنصور، فكان أوّل من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين ابن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما،ثم مجد الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب، وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له، وكذا بدر الدين شحنة دمشق، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لايالة الطريق، وكشف الأخبار، وحفظ مايليه من البلاد، وسار بعده الملك المظفر لحفظ مايليه من البلاد وتدبير أمر العدّو المجتاز، ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها، فأمر رحمة الله عليه الملك العادل فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن

زين الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم إلاّ أن المرض كان سليما بحمد الله تعالى، وكان المرض عند العدّو أكثر وأعظم، وكان مقترنا بموتان عظيم، وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطاً للعدو.

قال العماد: وتقدّم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلها إلى بيروت وفي بعض الكتب السلطانية:« قد عرفنا خبر العدّوالمشؤوم الواصل من جانب الروم، وهذا أوان تحّرك ذوي الحميه، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، وانهم في كثرة مسنتون في طريق العثرة، والسيل اذا وصل إلى الجبل الراسي وقف، والليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون وحاشى أن تكونوا للاسلام مسلمين، وأين المقدّمون في الدين، ومعاذ الله أن لايكونوا في نصرته على الموت مقدمين، ولولا التقيد بهذا العدّو الرابض لأطلقت أعنة النهضة إلى العدّو الناهض، ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين واراءة الملاعين وجوه حتفهم ملء العين».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد:« ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه، ويخرج منه للمسلمين ماهو أمر من أجاجه، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكه، فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفا عوضه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، والثمرة أنمى من الجذاذ، وهذا العدّو المقابل قاتله الله قد زرّ عليه من الخنادق دروعا متينة، وأستجن من الجنانات بحصون حصينة، فصار محصوراً ومتمنعا حاسرا ومتدّرعا، مواصلا ومنقطعا، وعددهم الجم قد كاثر القتل، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل، لشدة ماقطعها النصل، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في

استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لافي شجاعتهم، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية في الصحبة البدرية، «اللهم إن تهلك هذه العصابة» ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة، وقد حرّم باباهم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح، واستخرج منهم كل مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحداد وحكم عليهم أن لايزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة،فياعصبة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا فإنا والمسلمون عندك ودائعه، ومامثل الخادم نفسه في هذا القول إلاّ بحالة عبد لو أمكنه لو وقف بالعتبات ضارعا، وقبل ترابها خاشعا، وناجاها بالقول صادعا، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن من عدّو الاسلام أن يقول قولا آخر لسافر، ولولا أن في التصريح مايعود على العدالة بالتجريح لقال مايبكي العيون، وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب: ربّ إني لاأملك إلا نفسي، وهاهي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة، وولدي وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم، وهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم، ونقف عند هذا الحد ولله الأمر من قبل ومن بعد».

فصل

في الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة

قال القاضي ابن شداد:علم عدّو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سار كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدّو فأجمعوا رأيهم، واتفقت كلمتهمعلىأنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة، فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم العادل، فلما بصر بهم صاح صائحهم، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها، وركب السلطان ونادى مناديه: ياللاسلام، وكان رحمه الله أول راكب، ولقد ركب من خيمته، وحوله نفر يسير ثم خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة لولدهاوالثاكلة لواحدها، ثم ضرب الكوس فأجابته كاسات الأمراء من أماكنها، وركب الناس وسارع الفرنج في قصد الميمنة حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر، ودخلوا في وجاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا إلى خيمة الخاص وأخذوا من شرا بخاناته شيئا، وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قاياز النجمي، وعز الدين جرديك النوري ومن يجرى مجراه، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في المخيم ويشتغلوا بالنهب، وكان كما ظن فانه عاثت أيديهم في الخيام ، والاقمشة والفواكه والطعام، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى خيامهم هاربين، وعلى أعقابهم ناكصين، وسيف الله يقتل فيهم، وصاح صائح السلطان في الناس: ياأبطال الموحدين هذا عدّو الله قد أمكن الله منه، وقد داخله الطمع حتى غشّي خيامكم بنفسه، فبادر إلى اجابة دعوته أهل حلقته

وخاصته، ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي، وتتابعت العساكر وتجاوبت الأبطال، وقامت سوق الحرب فلم يكن إلاّ ساعة حتى رأينا(القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) (٩٤) وامتدوا مطروحين من خيام العادل إلى خيامهم، أولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدّو صرعى على التلول والوهاد، وكان مقدار ماامتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخاً، وربما زاد على ذلك، ولم ينج من القوم إلاّ النادر.

قال: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي، واجتهدت أن أعدهم،فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم، وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فإن السلطان كان قد أمر الناس أن لايستبقوا أحداً ، هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلاّ وقد نجز الأمر، وقضي القضاء على العدو لبعد المسافتين ، وكانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة، وانفصلت الحرب بعد العصر، وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الى مخيمهم على ماقيل، ثم إن السلطان أمر الناس بالتراجع، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، ولما أحس جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور خرجوا إلى مخيم العدّو من البلد، وجرى بينهم مقتلة عظيمة، وكانت النصرة والحمد لله للمسلمين، بحيث هجموا خيام العدّو ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام، ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس في عدد القتلى منهم، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون: سبعة آلاف ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أوّلها في خيم العادل وآخرها في خيم العدّو، ولقد لقيت انسانا عاقلا جندياً يسعى بين

صفوف القتلى، ويعدهم فقلت له: كم عددت؟ فقال: إلى هنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا، وكان قد عدّ صفين، وهو في الصف الثالث لكن مامضى من الصفوف أكثر عدداً من الباقي.

قال: وجاء من الغد نجاب له عن حلب خمسة أيام بكتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدّو الشمالي خرجوا للنهب بأطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الحلبي إليهم وأخذ عليهم الطرق، فلم ينج منهم أحد إلاّ من شاء الله.

قال: وجاء في ليلة ذلك اليوم من اليزك من ذكر أن العدّو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع منهم حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم، ولم يزل العدّو من حينئذ مكسور الجناح منهاض الجانب حتى وصلهم كند يقال له كندهري، وسيأتي ذكره.

وقال العماد: لما شاع عند الفرنج خبر وصول الألمانية قالوا: إذا وصل ملكهم، ونكى في المسلمين انكسر ناموسنا وتطأطأت عنده رؤوسنا، فذكر الوقعة بمعنى ماتقدم إلى أن قال: ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ماسره، وعرف لطف الله وبره ونصره، وعاين هناك مصارع الأعداء، ومشارع البلاء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الأرض، وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض، وكل صف يزيد على ألف قتيل، وشاع القتل في الفرنج في كل قبيل، وكانت هذه النوبة بلا نائبة، وتلك الغزوة بلا شائبة، وقتل منهم زهاء عشرة آلاف، ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر، واغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسرة.

قال: ولماعرفت بالواقعة، والنصرة الجامعة، صدرت ثلاثين أو أربعين كتابا بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات، وقلت: إذا نزل السلطان

وجد الكتب حاضرة، ورأى البشارة شائرة، وركبت أنا والقاضي بهاء الدين ابن شداد لمشاهدة ماهناك من أشلاء صرعى وأجساد، فما أعجل ماسلبوا وعرّوا، وفروا وفروّا، وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم، ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة، ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام، فعدنا إلى الخيام، واطلنا الوقوف على تلك الطلول الدارسة، واستبشرت الوجوه بتلك الأوجه العابسه، وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل، لاحزر تكثير بل حزر تقليل، وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا أقل من ألف، فقتلوا أضعافا مضاعفة وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة، وحكي من نوادر هذه الوقعة أن فرنجيا عقر فجثا للصرعة فعثر به راكب برذون فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده، فنزل بحده مستنا في جدده وقتل ذلك الفرنجي، وروى من دمه الهندي، وحل من وسطه ثمانين دينارا فانقلب ربحاً ماعده خساراً، وامتلأت الأيدي بالأسلاب والأكساب، وحصل من العدد مالم يكن في الحساب، وبيعت الزرديات ذوات الأثمان بالرخص.

قال: وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة، وسألوا في الصلح وأذن لهم السلطان في الخروج للنظر إلى اولئك الصرعى بتلك المروج،وهي قد تورمت، وانتنت، وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت، وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت، فساءهم ماسرنا، ونفرهم ماأقرّنا.

فصل

قال العماد: وكان الرأي بعد هذه ا لنصرة أن نرد عليهم الكرة مرة بعد مرة إلى أن يهلكوا حسرة، ويبيدوا فلا يبقى لهم جمرة، فاشتغل السلطان بما جاء من المكاتبات بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدة من البحر، ومدد أضعاف مانقص منهم من العدد والعدد، فأضحوا كأن لم ينكبوا، وثبتوا مكانهم ولم يثبوا، ووصل اليهم المعروف بالكندهري، ففرّق الأموال واستخدم الرجال، وأنفق في عشرة آلاف رجل ،وأظهر أنه يخرج إلى لقاء عسكر الاسلام، فتحوّل السلطان الى منزلة الخروبة ليوسع عليهم الدائرة، ونصب الكند على عكا منجنيقات كثيرة، فأحرقها المسلمون، وقتل منهم من الفوارس سبعون، وأسر عدّة معروفون، ثم نصب منجنيقين فأحرقا أوّل شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفا وخمسمائة دينار، ومن جملة من وقع في الأسر فارس كبير فما أمهلوه حين أخذوه، حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال ولم يعرفوا بالحال فأخرجوه إليهم قتيلا فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا، وباتوا يندبونه نوحاً، ويذيعون سر تقدّمه فيهم بوحاً، وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بنفوسهم الأرض، وحثوا على رؤوسهم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة، وكتموا أمره ولم يظهر أحداً على سره، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون، هذا والكتب متواصلة من عكا الينا ومنا إليها على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سارقة من العدو.

قال العماد: ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية، والخطبة فيه، وأنه مستمر على المودّه ، راغب في المحبة، ويعتذر عن عبور الملك الألماني، وأنه قد فجع في طريقه بالأماني، ونال

مـن الشدة، ونقـص العدة مـا أضعفه وأوهـاه، وأنه لايصـل إلى بلادكـم فينتفـع بنفسه أو ينفـع، ويكون مصرعـه هنـاك ولايرجـع، ويموت بما بـه كـاده، وأنـه قـد بلـغ في أذاه اجتهاده، ويطلـب رسـولا يـدرك بـه مـن السلطان سـولا، فأجيـب في ذلك إلى مراده، ووقـع الاعتداد بما ذكـره من اعتداده.

وقـال القاضي ابـن شدّاد: كـان بين السلطـان وبين ملك قسطنطينيـة مراسلـه ومكاتبـه، وكان وصـل منه رسـول الى الباب الكـريم السلطـاني بمـرج عيون سنـة خمس وثمانين في رجـب في جـواب رسول كـان أنفـذه السلطان بعد تقريـر القواعد، واقامة قانون الخطبـة في جامع قسطنطينية، فمضى الرسـول وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكـرام زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعـاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينيـة يومـا عظيما من أيـام الاسلام، وشـاهده جمع كبير مـن التجـار، ورقـي الخطيب المنبر واجتمـع إليـه المسلمـون المقيمـون بها والتجار، وأقام الدعوة الاسلامية العباسيـة، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال في ذلك فـأقام مدّة ولقد شاهدته يبلغ الـرسالة ومعه ترجمان يترجـم عنه وهـو شيخ مـن أحسن مـايفرض أن يكـون من صـور المشايـخ، وعليه زيهم الـذي يختص بهم، ومعـه كتاب وتـذكرة والكتـاب مختوم بذهب، ولما مات وصل خبر وفاتـه إلى ملك قسطنطينية، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك، ثم وصف القاضي الكتاب، وعبر عنه بألفاظه.

وقـد عبر العماد عن معـانيـه فأغنـى عـن ذلك، ثـم قـال: وكان مـن حديـث ملك الالمان أنـه بعد أن استقـرت قدمـه في أنطاكيـة أخذهـامن صاحبهـا وتحكم فيـه، وكان بين يـديه فيهـا ينفذ أوامـره، وكان لـه أموال برفقته، فأخذها منه غيلة وخديعـة وأودعها في خزانته، وسار عنها خامس عشري رجب، نحـو عكا في جيوشـه، وجموعه على طـريق اللاذقيـة حتى

أتى طرابلس، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الأصل في تهييج الجموع، وذلك أنه صوّر القدس في ورقة عظيمة، وصوّر فيه صورة القمامة التي يحجون إليها، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوّر القبر، وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشفة وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم فإنها أصل دينهم،فهاج بذلك خلائق لايحصي عددهم إلا الله تعالى، كان من جملتهم ملك الألمان، وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا في استدعائهم إلى هذه الواقعة، فلما اتصل به قوّى قلبه وبصره بالطرق، وسلك به الساحل خوفا من أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماه نازلهم المسلمون من كل جانب، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم، واختلف حزر الناس لهم، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ماذكر بمائتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه، ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجد في اعقابهم نيفا وستين فرساً قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدّة الجوع وضعف الخيل، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطفهم من حولهم نهباً وأسراً وقتلاً حتى أتوا طرابلس،

فأقام بها حتى استجم عسكره، وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه فوجموا من ذلك، لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالمعسكر، هو الذي يرجع إليه في الأمور، فعلم أنه مع قدوم الملك الألماني لايبقى له حكم، وفي أواخر شعبان نزل الملك الألماني في المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح اهلكت منهم ثلاثة

مـراكـب، وسار البـاقـون إلى صـور، ثـم وصل إلى عكـا في نفـر يسير في سادس رمضـان، وكان لقدومه وقـع عظيم عندهم، ووصـل خبر وصولهم إلى طرابلس ثامن شعبان، والسلطان ثـابت الجأش راسخ القدم لايزعزعه ذلك عـن حراسة عكا والحمايـة لها، ومراصدة العسكر النـازل بها، وشن الغارات والهجوم عليهـم في كل وقت، مفوّضا أمـره إلى الله تعالى، معتمداً عليه منبسط الوجـه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً ببره مـن نفذ إليه من الفقـراء والفقهـاء والمشايـخ والأدبـاء، ولقـد كنت إذا بلغنـي هـذا الخبر تأثـرت حتى إذا دخلت عليـه أجد عنده مـن قوّة النفس وشـدّة البأس مايشرح صدري، وأتيقن معه نصر الاسلام وأهله.

فصل

في إدخال البطس إلى عكا

قال ابن شـدّاد: كان رحمه الله قد أعدّ ببيروت بطسه، وعمـرها وأودعها أربعمائة غرارة مـن القمح، ووضـع فيها مـن الجبن والبصـل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مـراكبهم حول عكا حراسة لها عن ان يـدخلها مـركـب للمسلمين، وكان قـد اشتدت حـاجـة من فيهـا إلى الطعام والميرة، فـركب في بطسه بيروت جماعـة من المسلمين، وتزيـوا بزّي الفرنـج، حتى حلقوا لحاهم ووضعـوا الخنازير على سطح البطسـة بحيث ترى مـن بعد، وعلقـوا الصلبان وجـاؤوا قاصـدي البلد مـن البعد حتـى خالطوا مراكب العدّو، فخرجـوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلـد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أولم تكونوا أخذتـم البلد؟ فقـالوا:لم نـأخذ البلد بعـد، فقالـوا: نحن نـرّد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخـرى في هوائها فأنذروهم حتـى لايدخلوا البلد، وكان وراءهم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوهـا فقصدوها لينذروهـا، فاشتدّت البطسة الاسـلامية في السير واستقامـت لها الريح حتى دخلـت مينا البلد وسلمت ولله الحمـد، وكان فرجا عظيما فـإن الحاجة كانت قـد أخذت من أهل البلـد، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب.

قال: وفي العشر الأوسـط من شعبان كتب بهاء الـدين قراقـوش، وهو والي البلدوالمقدّم على الأسطول، وهو الحاجب لـؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبـق بـالبلـد إلا قـدر يكفـي البلـد إلي ليلـة النصـف مـن شعبـان لاغير(فـأسرها يـوسـف في نفسـه ولم يبدهـا)[٩٥] لخاص ولاعام خشيـة الشيوع والبلوغ إلى العدّو فتضعف بـه قلوب المسلمين، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيـز ثـلاث بطـس مشحـونـة بـالأقـوات والأدام والمير وجميـع

مـايحتاج إليـه في الحصار، بحيـث يكفيهم ذلـك طول الشتـاء، فأقلعـت البطس الثلاث من الـديار المصرية، ولججت في البحر تتوخـى النوتية بها الريح التي تحملهـا إلى عكا، فطابت لهم الريح حتـى ساروا ووصلوا إلى عكـا ليلـة النصـف مـن شعبان، وقـد فنيـت الأزواد، ولم يبـق عنـدهـم مايطعمـون الناس في ذلـك اليوم، وخـرج عليها أسطـول العدّو يقـاتلها والعساكر الاسـلامية تشاهد ذلـك من الساحل والنـاس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمـون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضـاء بسلامتها إلى البلد، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال، ويدعو إلى ربه بنصره، وقـد علم مـن شدّة القوم مـالم يعلمه غيره، وفي قلبـه مافي قلبه والله يثبتـه، ولم يزل القتال يعمل حـول البطس من كل جـانب، والله يدفع عنها والـريح تشتدّ والأصوات قد ارتفعت مـن الطائفتين، والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى مينـا البلد، وتلقاهم أهل عكا تلقي الامطار عن جدب، وامتاروا بما فيهـا، وكانت ليلة بليال، وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان.

وقال العماد: كـان السلطان قـد أمر نوّاب الاسكنـدرية بتجهيـز بطس كبار وتعميرها من كل ميرة وغلة وتسييرهـا إلى عكا، فأبطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بـالبلد إعـواز الأقوات، فـافكر فيما يتعجـل به الغـرض، فكتب إلى متـولي بيروت عز الدين سـامة فجهز بطسة كبيرة،مـلأها ميرة، وغلة كثيرة، وأركبهـا جماعة على زي الفـرنج ممسـوحي اللحـى، ممسوخـي الحلى، وأصحبهـم صلبانـا وخيل بهم رهبـانا، وكـانت هـذه البطسة مـن الفرنـج مأخـوذة، وهي بسـاحل بيروت منبـوذة، فأمـر السلطان بترميمهـا وتتميمها، فملئـت بالشحـوم واللحوم، وأربعمائة غـرارة غلة، وأحمال مـن النشاب والنفط، ورتب فيها ر جـال مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبـه ببطـس العـدّو في البحـر، فشـدّوا زنـانير واستصحبـوا خنـازير، وسـاروا بها في البحر بمـراكب الفـرنج مختلطين، والى محادثتهـم

ومجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوّبوا بها نحوها والريح تسوقها، والفرنج من مراكبها تقول: ماهذه طريقها، وهي كالسهم النافذ قد سدّد فوقها، فدخلت الثغر واجتزأ البلد بها نصف شهر، وظهرت رابع عشر رمضان من ثبج البحر ثلاث مراكب، كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامها كالأعلام، طائرة كالسهام، ولم تبال بمراكب العدّو فخرقتها، وقربت من سفينة فغرقتها، وعبرت وعين الكفر عبرى، وامتلأ الثغر بها وأثرى.

فصل

قال العماد:ووصل ملك الألمان، ورام أن يظهر بمجيئة وقعا، ويبدي به نفعا، فدبوا في راجل كرجل الدبا، وخيل أغصت الوهاد والربى، وقربوا من تل العياضيه، وعليه خيم اليزكية، والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصرية، والعصبة الموصلية، فثارت إليهم، ودارت عليهم، وركب السلطان، وتقدّم إلى تل كيسان، ولم يزل الحرب إلى أن جن الظلام، وكف الكفر، وسلم الاسلام، وكانت الدائرة على الكفرة.

قال القاضي: وقتل منهم وجرح خلق عظيم، والسيف يعمل في بقيتهم وهم هاربون حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو لايعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه، وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان، وجرح جماعة كثيرة.

ومن كتاب إلى بغداد:«قد بلي الاسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفين الأهل والديار، وركبوا اللجج ووهبوا المهج كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالاً لأمر مركيسهم وغيرة لمتعبدهم وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم، وتحرقاً على قمامتهم، ولايطلبون مع شدّة الاملاق مالاً، ولايجدون مع كثرة المشاق ملالا، بل يتساقطون على نيران الظبى تساقط الفراش، ويقتحمون الردى متدرّعين الصبر متثبتي الجأش، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجهزات، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل، والتزمت بمؤنتهم فصودف مركبها بقرب الاسكندرية فأخذت برجالها، وأراح الله شر احتفالها، ومنهن ملكة وصلت مع ملك الالمان، وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات، وقد وجد في الوقعات التي جرت عدّة منهن بين القتلى، وماعرفن حتى

سلبن، وإن البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: من لايتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محرم، لامنكح له ولامطعم، فلأجل هذا يتهافتون على الورود، ويتهالكون على يومهم الموعود، وقال لهم:إني واصل في الربيع، جامع على الاستنفار شمل الجميع، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول إن لله أهلا وولد، فهذا شرح هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم ولجاجتهم في غوايتهم، بخلاف أهل الاسلام، فإنهم يتضجرون ولايصبرون، بل يتفللون ولايجتمعون، ويتسللون ولايرجعون وإنما يقيمون ببذل نفقة، واذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة، ليعلم أن الاسلام من عند الله منصور، وان الكفر بارادة الله محسور ومدحور.

قال القاضي: ولما عرف ملك الألمان ماجرى على أصحابه من اليزك الذي هو شرذمة من العسكر، رأى أن يرجع إلى قتال البلد، ويشتغل بمضايقته، فاتخذ من الآلات العجيبة، والصنايع الغريبة، ماهال الناظر إليه وخيف على البلدمنه، فمما أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة فتهدمه بتكرار نطحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال تسحب ذلك إلا أن رأسها محدّد على مثال السكة التي يحرث بها، ورأس الكبش مدّور هذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها وهي تسمى سفودا، ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة، واعدّوا في البحر بطسة غائلة، وصنعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقى طريقا إلى المكان الذي ينقلب عليه يمشى عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به.

قال: ونصب العدّو على البلد منجنيقات هائلة، حاكمة على السور،

وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه أثرا بينا، وخيف من غائلته فأخذ سهمان من الجرخ العظيم، وأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه، واجتهد العدّو في إطفاء النار، فلم يقدر على ذلك، وهبت ريح شديدة فاشتعل اشتعالا عظيما، واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته، واشتدت ناراهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتال في إطفائهما، وكان يوماً عظيماً اشتد فيه فرح المسلمين، وغم الكافرين».

قال:«ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها، يعني نوادر ماجرى في القتال على عكا، أن عواما مسلما كان يقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من العدّو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدّو، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتبا للعسكر، وعام في البحر فجرى عليه أمر أهلكه، وأبطأ خبره عنا، وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائر عرفنا بوصوله، فابطأ الطائر فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتا غريقا فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب، ومشمع الكتب، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فمارؤي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقدر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضا».

وقال العماد: فقد —يعني عيسى—ولم يسمع له خبر ولم يظهر له أثر، فظنت به الظنون، وماتيقنت المنون، وكانت له لاشك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حاله وهي مجهلة محتملة، فوجد في عكا ميتا قد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مماقالوا، فذهب اليقين من الظنون بباطلها.

فصل

في احراق ماحوصر به برج الذبان وتحريق الكبش

قال القاضي:وفي الثاني والعشرين من شعبان، جهز العدّو لعنه الله بطساً متعددة لمحاصرة برج الذبان، وهو برج وسط مبني على الصخرعلى باب مينا عكا، تحرس منه المينا، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدّو، فأراد العدّو أخذه ليبقى المينا بحكمه ويمنع من دخول شيء من البطس إليه، فتنقطع الميرة عن البلد، فجعلوا على صواري البطس برجاً وملؤوه حطباً ونفطا على أنهم يسيرون البطس فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصاري، وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقوداً على أ نهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الاسلامية، ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية، ويهلك مافيها من المير، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لايصل إليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح، حتى إذا أحرقوا ماأرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو فأمنوا وأحرقوا ماأرادوا إحراقه، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور، وكان طمعهم مشتدا حيث كان الهوا مسعدا لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به من على البرج فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم، كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة إلاّ من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت معدّة لإحراق بطسنا، ووثب أصحابنا عليها فأخذوها إليهم وأما البطسة التي فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيماً فانقلبت، وهلك جميع من بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى، وأندر العجائب في نصرة دين الله ولله الحمد، وكان يوما مشهودا.

وقال العماد: وعند مينا عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان، وهو في حراسة المينا عظيم الشان، وهو منفرد عن البلد محمي بالرجال و العدد، وقصد الأفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها، ومراكب عظام الآلات أبرزوها، ومكر مكروه، ودبردبروه، وأحد تلك المراكب قد ركب برج فوق صاريه، لايطاوله طود ولا يباريه وقد حشي حشاه بالنفط والحطب، وضيق عطنه بسعة العطب حتى إذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته أعدى إليه بآفاته، ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الأخشاب والستائر مابه التصق، واستولت النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها، ولم يقربوا منها، وأوقدت بطسة الحطب التي من ورائها، وعادت على الفرنج فالتهبوا، وحمى عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا، وانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا، والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يغرقوا، واحتمى برج الذبان فلم يطر عليه من بعدها ذباب، ولم يفتح للعدّو في الكيد له باب.

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن:« ومن حديث هذا البرج أنه يحيط به البحر من جوانبه، وهو قفل مينا الثغر على مراكبه، وقد رفعناه وأعليناه، وبالعدد والرجال قويناه فعمدوا إلى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقالا كأنه سلم، وهو في مقدمها مركب مقدم، وقد جعلوها بحيث إذا قرب إلى البرج ركب رأس السلم على شراريفه، وصعد الرجال إليه في تجاويفه، وتعبوا في ذلك أياما، وأشبعوه توثيقا واحكاما، حتى إذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط، وتوالت امطار البلايا من الجروخ والمنجنيقات على أولئك الرهط، ثم عمل الفرنج برجاً عاليا في أكبر مركب وحشوه بالحطب، وعملوا على رأس صاريه مكاناً يقعد فيه الزراق، وقدموه إلى برج الذبان، وسلطوا على جوانبه النيران، فأهب الله

من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس، وكبت الفرنج على الوجوه والرؤوس.

قال القاضي: وفي ثالث رمضان زحف العدّو على البلد في خلق لايحصى فأهملهم أهل البلد حتى نشبت مخالب اطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور، وتحصل منهم في الخندق جماعة عظيمة، فأطلقوا عليهم الجروخ والمجانيق والسهام والنيران، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدّو من كل جانب، وكبسوهم في الخنادق فهربوا ووقع السيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه النارووالنفط، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فأحرق حريقاً شنيعاً، وظهرت له لهبة نحو السماء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في الاسل[٩٦] فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة، وألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام، وبلغنا من البلد أنه وزن ماكان عليه من الحديد، فكان مائة قنطار بالشامي، والقنطار مائة رطل، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثال السفود الذي يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به السور فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أ حسن أيام الاسلام، ووقع على العدّو خذلان عظيم، ورفعوا ماسلم وآلاتهم، وسكنت حركاتهم التي ضيقوا فيها نفقاتهم، وقال العماد: واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، في رأسها شكل عظيم، يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت[٩٧] الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فلم يبق للنار إليها سبيل، ولا للعطب عليها دليل، وملؤوها

بالكماة والرماة وسحبوها وقربوها فجاءت صورة مزعجة، وبلي البلد منها بالبلاء الأفظع، وقالوا: مافي دفعها حيلة ولا مطمع ونصبوا على صوبها مجانيق، ورموا بالحجارة الثقيلة ذلك النيق، فأبعدت رجالها من حواليها ثم رموها بحزم الحطب حتى أحرقوا مابين القرنين، وقذفوها بالنار فباتوا يطفئونها بالخل والخمر وقد تمكنت النار من أضلاعها، ثم خسفها المنجنيق وخرج من بالثغر فقطعوا رأس الكبش، واستخرجوا ماتحت الرماد من العدد بالنبش، وقدر مانهب من الحديد بمائة قنطار، وعلم الفرنج أن أعمالهم حبطت، وآمالهم هبطت، وكان ذلك في ثالث عشر رمضان، وفيه قدم الظاهر صاحب حلب والأمجد صاحب بعلبك، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعزالدين بن المقدم والامير حسام الدين حسين بن باريك، وجماعة من الأمراء والخواص والمماليك.

فصل

في حوادث أخر متفرقات

قال العماد: ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب أنطاكية أغار على غرة بشر وشره، فرتب أصحابنا له كمينا، ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا، فقتلوا أكثر رجاله وأفلت وباله في وباله.

قال القاضي: خرج عليه نواب الملك الظاهر، فقتل من عسكره خمسون نفراً وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيح حتى اندفعوا وسار إلى بلده.

قال: وفي أثناء العشر الأوسط ألقت الريح بطستين، فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدّو، فغنمها المسلمون، وكان العدّو قد ظفر لنا ببركوس فيه رجال أراد الدخول إلى البلد فأخذه، فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابراً له.

قال العماد: وفي هذا التاريخ ألقت الريح إلى ساحل زيب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء، وفيهما امرأة محتشمة غنية محترمة، فأخذتا وأخذوا وأخذت، وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت.

قال: وفي تاسع عشر الشهر رحلنا إلى منزلة تعرف بشفرعم، وسببه أنه كثر المستأمنون من الفرنج وأخبروا أنهم في عزم الخروج الى المرج هائجين إلى الثأر، ثائرين إلى الهيجاء فاستشار السلطان أمراءه فقالوا: الصواب أن نفسح لهم عن هذه المروج، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج، فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر، فخيمنا هناك ورحبت المنازل وعذبت المناهل،وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا

التلال والآكام، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام، ونزلنا لمقام الشتا مستعدين، ولأسباب التوقي من الأمطار مستنجدين.

قال: ومرض زين الدين صاحب إربل في شهر رمضان، وتوفي في الثامن والعشرين منه.

قال القاضي: وكان استأذن في الرواح فلم يؤذن له، فأستأذن في الانتقال إلى الناصرة فاذن له، فأقام بها أياما يمرض نفسه، ثم توفي وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته.

قال العماد: وكان كريماً أريحياً، جواداً سخيا، وبكرنا إلى مظفر الدين نعزيه في أخيه، وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء، مهتم بالاحتياط على ماخلفه أخوه وتركه من الأشياع والأشياء، وهو جالس في مخيم أخيه المتوفى، وقد أشرف على حفظه وأوفى، وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم، وعجل عليهم وما أغفلهم، منهم: صارم الدين بن بلداجي متولي خفيتان[٩٨]، كان ليتسلم منه المكان، وكذلك كل حاضر له حصن ليحصل له من طاعته أمن، وخاطب في اسباب ولاية إربل وأعمالها، وأن يستقل ببلادها وأموالها ، ورغب في شهرزور واستضافتها لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها، وأنه ينزل على حران والرها وسميساط والموزر، ويجعل كل مافي يده من الأعمال في الموفر، ويخدم بخمسين ألف دينار، يحضرها نقدا، ويلتزم بها على الميثاق عقداً، فاجيبت رغبته، وأصيبت طلبته، وعقد لواؤه، ونجح رجاؤه، وأراد سرعة الرحيل، فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ثالث شوال وأضيف إليه مااستعيد من مظفر الدين من الأعمال، وكتب منشور إربل، وكتاب إلى صاحب الموصل فيه:« لاشك في إحاطة العلم

بانتقال زين الدين إلى جوار الله ومقر رحمته، مجاهداً في سبيله، شاكراً لنعمته، وهو من السعداء الذين أنزل الله تعالى فيهم: (ومن يخرج من بيته مهاجراإلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (٩٩) فما أفجع القلوب بمصابه، وماأنكى في النفوس أفول شبابه، ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته واعلاء درجته، ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الآثار في ايثاره، وبلي بدره التم بسراره، وأصبح في ضمير البلى من أسراره، وهذه إربل من انعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزيني مذ سبعين عاما، لم يحلوا لعقد انعامهم بها نظاماً، ولم يزيدوا أحكامه إلا احكاما وإبراما، ومارأى أن يخرج هذا الموضع منهم، وأن يصدف به عنهم، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه، والمقدم في الولايةبمقتضى وصية أبيه، وقد أنهض ليسد مسد أخيه».

قال: وكان الملك المظفر تقي الدين متوليا منذ سنين أعمال ميافارقين، فطلب من عمه تفويض كل ماوراء ا لفرات إليه والاعتماد فيه عليه، فأنعم عليه بذلك فأقام عندنا بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المضي إلى تلك الولاية، وسير نوابه إليها لابقاء رعاياها على شيمة الرعاية.

قال : ولما أحس العسكر الشرقي بالشتاء أبدوا خلق السآمة، وضجروا من الاقامة، وأماعماد الدين صاحب سنجار فإنه عرف كراهية السلطان لفراقه، فلم يجر إلا على وفاقه، وأما صاحب الجزيرة سنجر شاه، فإنه استطال المقام وأباه، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده وودعه من غير سابقة الاستئذان، فأغضبه انفصاله، وساءه ارتحاله، وكان تقي الدين واصلاً فلقي صاحب الجزيرة عنا فاصلا، فردّه عن طريقه، وجد في تعويقه، ورجع به إلى الرضى، وعفا الله عما مضى.

قال القاضي: ترددت رسله ورقاعه إلى السلطان في طلب الدستور، والسلطان يعتذر بأن رسل العدّو متكررة في معنى الصلح ولا يجوز أن

تنفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وهو ملتاث الجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته، وتبعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعه كتب إليه:« إنك أنت قصدت الإنتماء إلي في الابتداء فبسطت يدك وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك، فقبلتك وآويتك ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام، فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق، وتحركت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدّو، فانظر لنفسك وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات»،وسلم الكتاب إلى نجاب فلحقه قريبا من طبرية فقرأ الكتاب، ولم يلتفت وسار، فلقيه تقي الدين عند عقبة فيق فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له في الرواح، ففهم تقي الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فأمره بالرجوع وقال: أنت صبي ولاتعلم غائلة هذا الأمر، فقال: مايمكنني الرجوع، فقال: ترجع من كل بد من غير اختيارك، وكان تقي الدين شديد البأس مقداماً على الأمور ليس في عينه من أ حد شيء، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه، وسأل السلطان الصفح عنه ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره إلى حين ذهابه.

وقال العماد في الفتح: وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام، وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان:

من ضاع مثلي من يديه
فليت شعري ما استفادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخطاب ولا غادى

وقال في البرق: وفي مستهل ذي القعدة أذن لعلاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل، ونعت بالملك السعيد لما تفرس فيه من أمارات السعد، وأقام بعده عمه عماد الدين وابن عمه معز الدين سنجرشاه وهما صاحبا سنجار والجزيرة، وحبوا بالحباء الوافر والعطايا الغزيرة، ومافارقا إلاّ في السنة الأخرى في ثالث صفر.

قال: وغلت الأسعار عند الفرنج حتى بلغت الغرارة أكثر من مائة دينار، والسعر من الزيادة لديهم في استعار، وبلوا بأمور صعبة، وهرب إلينا منهم عصبة بعد عصبة، فاستأمنوا إلينا لفرط جوعهم جميعهم، ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا في رجوعهم، فمنهم من أسلم فحسن إسلامه، ومنهم من خدم فوافق استخدامه، ومنهم من حن إلى إلفه، فرجع القهقرى إلى خلفه.

فصل

كان القاضي الفاضل رحمه الله تعالى في هذه الأوقات بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الاسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع اجوبته بأحسن عباراته، مشيرا وناصحا ومسليا، وباحثا عن مصالح الاسلام متقصيا، فمن بعض كتبه: « المملوك ينهى أن الله تعالى لاينال ماعنده إلاّ بطاعته، ولاتفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان باديه، والمظالم في كل موضع فاشيه، وقد طلع إلى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها إلاّ مايستعاذ منه، وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس مايكون بمشيئة الله له حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه، بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبه ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الاجساد، وتتصدع بذكرها الأكباد، والمملوك لايتعرض لتفصيل مابلغه من ظهور المنكرات في أتباعه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتهما وتفقدهما في أشتيه القدس العظيمة الجليلة المثلجة لايؤمن سقوطها، وافتضاح القدرة في العجز عن اعادتهما، والمرمة أقرب تناولاً من الانشاء والتجديد، ولا شبهه أن مولانا عز نصره في اشغال شاغلة وأمور متشددة، وقضايا غير واحدة ولا متعددة، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا، وأضجرتهم الايام فما ضجروا، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود، وصبر في طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام، فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل في الامور الخطيرة، ولايقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة، فالمولى إذا أقبل كان واحدا، وإذا أدبر كان مقوما بجميع الخلق، ولايطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرملة التي كان وقوعها من الله سبحانه

أدباً لاغضباً وتوفيقا لا اتفاقا، ولايكره المولى أن تطول مدة الإبتلاء بهذا العدّو، فثوابه يطول وحسناته تزيد، وأثره في الاسلام يبقى، وفتوحاته بمشئية الله يعظم موقعها، (والعاقبة للتقوى) [١٠٠] (ولينصرن الله من ينصره) [١٠١] والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده، وبرأيه وبولده، وبخاصته، وبعامة جنده، وبالأعداء في أعدائه كجهاده بصاحب صيدا في الفرنج، فهو جهاد قد أربى فيه رأي المولى فرجح والحديد يفلح، وأكيد ماقوبل به العدّو سلاحه، وأسرع جناح طار لقنصه جناحه، ودولة مولانا كالبحر كرما وظهور عجائب، وكالسماء مطرا وأسنة كواكب».

ومن كتاب آخر:« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، لطف الله بقلبه، وحمل عنه، وروّح سره، ووصل الراحة به، ونسأل أن يرحمه لنا الذي رحمنا به، فقد بلغت منا الحناجر القلوب، وقد وقفت في طرقنا الذنوب، وبينما نحن ننتظر من كتب المولى مايستدل به على أن قلب المولى قد طاب، وقصد العدّو قد خاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا للاكباد مفتتا للقلوب ولو أنها جماد»، ثم ذكر البطس الذي تقدم ذكرها الواصلة إلى عكا ليلة نصف شعبان فقال:« وبينا نحن نعتقد أن البطس في عكا، وصل الخبر بأنها في دمياط، ويوم وصل الخبر بانها في دمياط نحن على انتظار خروجها منه، وكتب البطائق بالاستحثاث والاستعجال، وتحذيرهم من تمادي المقام وماتيقنا أخرجت أم هي بلقية، كأن الريح في بيت ماخرجت منه من هاتين الجمعتين، ولها من تاريخ خروجها من الاسكندرية وإلى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوما والعيون ممدودة، والأيدي مرفوعة بأن يفرج الله عنا وعنكم بوصولها، فمن شبع في هذه الأيام فما واسى المسلمين، ومن نام ملء عينه، فما هو من أخوة المؤمنين، والمملوك شفيق على البطس في وقت الدخول حذر أن يعترض العدّو طريقها، فيحول بينها وبين الوصول، فينكس المراد بها، ويحدث من المضرة بحرمانها أضعاف

مـايحدث مـن النعمـة بـالفرج المسير فيهـا، وآكـد هـذه الحال في نفـس المملوك وقـوفه على كتـب أصحابنـا من عكـا، وقد وقـع لهم هذا الـواقع الذي وقع للمملـوك من خوفهم عليهـا، واستبعادهم دخولها ،فـالمملوك وكل من يعرف الأمر إلا كـأهل الصراط، رب سلم رب سلم، فنسأل الله سبحـانه أن لايكلنـا إلى أنفسنـا فنعجـز، ولا إلى الناس فنضيـع، ومجهـود أهـل الأرض قـد انتهى وبقـي مـايفعلـه الله، والخير منتظر منـه، والفـرج بالقوت قد سير في البحر من خمسة عشر يوما، والفرج بالنفقة قد سير في البر من عشرة أيـام، والله يامولانـا ما تنجـز شيء من هذه الأمـور إلاّ بأن تضرب الوجوه بالشوك، وتستحلب الحجـارة وينبه النوام، وتبح الأصوات مـن التذكـار، وتحفـى الأقـلام من الكتـابـة، ويخضـع لمن يلزمـه الشغـل كالخضوع لمن لايلـزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيتـه في الاستعانة، والأعوان قليل.

وقـــد كـــانـــوا اذا عـــدوا قليـــلا
فقـــد صـــاروا أقـــل مـــن القليـــل»

ومن كتاب آخـر:« وماتجدد للعدّو من الشروع في آلات الحصـار لعكا، ومـا أرجـف بـه مـن النجـدتين الفـرنجيتين الـواصلـة والبعيـدة وافتراق العسـاكـرفي هذا الـوقـت للضرورة، والتماس العسكـر الشرقي الـدستـور للضجر، وحـاجة المولى مـن الانفاق إلى مـالايسعه التـدبير، ويضيق عنـه الامكان، ومطـالبة الغني بالـزيادة مع الغنـى والضعيف بأكثر ممـا يحتاج إليـه وضيـاع فرصـة، واختـلاف رأي بين المتشـاور من الجماعـة، وجـود الألسنة بالآراء، وبخـل الأيدي بالمعونة، وانفـراد المولى بالتعب، واشتراك النـاس في الراحـة، ومـاابتلي بـه المسلمـون من مـرض أظهروه ليكـون لهم عذراً في القعود، وكتمـه على نفسه لئلا يجلب لأصحابنـا ضعف النفوس، فهـذه الأمـور وإن كـانت شـدائد، وزائدات على العـوائد، فقـد ألهم الله مولانـا فيها سعة الصـدر، وحسن الصبر، ليشعـره أن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجـر، ولو لم يعرف المملوك غير الله ينصرهـا، وغير مولانا

يباشر النصرة ويحضرها، فليس إلا التجرد للدعاء، والتجلد للقضاء، فلا بد من قدر مفعول، ودعاء مقبول، ومن الامثال المنظومة:

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا
يوم الهياج وإن علوا لم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، وأن يسلم على يدينا القدس ثم ينصره، ثم معاذ الله أن نغلب على النصر، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر، وإذا كان ماتقدم الله اليه المماليك قبل المولى لابدمنه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا، خير من أن نلقاه والحجة علينا، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر بصره، وتملأ صدره (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم) [١٠٢] وهذا على دين ماغلب بكثره، ولانصر بثروه، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف، (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) [١٠٣] ، واشتدّي أزمة تنفرجي، والغمرات تذهب ثم لاتجيء، والله تعالى يسمع الأذن مايسر القلب، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ماابتلى إلاّ بذنب».

ومن كتاب آخر:«يامولانا اعلم أن الله تعالى قد فعل لك مافعله لنفسه، ودل على لطفه بك كما دل على قدرته، فإنه تعالى خلق من غير مادّة، وأقام السماء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبيه في الملوك: كرماً ، وديناً، وسهل لك من مصر مالاً من غير جهة، وحمى منها بلاداً بغير جند، وسكن رعية بغير ولاة فاشكر الله، ولاتحتقر خدمة من يبيع الأنفاس، والنوم والراحة اجتهاداً فيما يريحك، ويخفف عنك ثم لايريد العوض منك إنما يريده من الله عنك، لأن خدمتك طاعة والوجوه التي وقعت الاشارة إليهاخضنا فيها وفي غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا إليه، يامولانا ليس لك في مصر إلا الثغور، وماعملت في هذه السنة

إلا بقدر ثمن حمال ماسير اليك من الأساطيل إن الله آخذ بيد الكريم، والمعونة بحسب المؤونة فليهن المولى العافية من الحساب، فشتان: مابين حساب من كنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله، وحساب من قال بيده هكذا وهكذا في سبيل الله» ومن كتاب آخر« وما في نفس الملوك شائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بجسم مولانا ، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا.

بنا معشر الخدام منابك من أذى
وإن أشفقوا مما أقول فبي وحدي»

ومن كتاب آخر:« إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولوأطعناه لما عاقبنا بعدّونا، ولو فعلنا مانقدر عليه من أمره، لفعل لنا مالانقدر عليهإلا به فلا يستخصم أحد إلاّعمله ولا يلم إلاّنفسه، ولايرج إلاّربه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأصول أن تحصر، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، ولانأمن أن يكلنا الله إليها والنصربه، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا فلولا أنها مسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق».

وفي كتاب آخر وصف فيه الملك العزيز عثمان بن السلطان ثم قال:«ولو شاهد مولانا اليوم شخصه الكريم، وصورته الجميلة، ونفسه الطاهرة، ونظرته المطرقة، وصفحته الحييه، وسكون حركاته الموزونة، لخلع عليه فؤاده، ووهبه عينه ورقاده، ولقد يرد المولى عرصات القيامة وثواب فراقه له لوجه الله أعظم من ثواب جهاده في سبيل الله، وإن إيمانا صبّره عن ذلك الولد الكريم لكريم، وإن إيمانا أسلى عن ذلك الملك لعظيم».

ومن كتاب آخـر:«وعسكرنا لايشكو والحمد لله منـه خوراً، وإنما يشكو منه ضجـراً، والقوى البشريـة لابد أن يكـون لها حد، والاقـدار الالهية لها قصد، وكـل ذي قصد خـادم قصدها، وواقـف عند حـدها، وإنما يـذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقـت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع مـن أبطاله قال الله تعالى: (فاعـف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) (١٠٤) يامولانـا أليس الله تعالى اطلع على قلـوب أهل الأرض فلـم يـؤهـل، ولم يستصلـح، ولم يختر ولم يسهـل، ولم يستعمـل ولم يستخـدم في إقامـة دينـه وإعلاء كلمتـة وتمهيد سلطـانـه، وحماية شعـاره وحفظ قبلة موحـديه إلاّ أنت، هذا وفي الأرض من هو للنبـوة قرابه، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومـن له في العدد كثرة، فأقعدهم وأقامـك، وكسلهم ونشطـك، وقبضهم وبسطـك، وحبب الـدنيا إليهـم، وبغضها إليك، وصعبهـا عليهم وهونها عليك، وأمسـك أيديهم، وأطلق يدك، وأغمـد سيوفهـم وجرد سيفـك، وأشقاهـم وأنعم عليـك، وثبطهم وسيرك، ولـو أرادوا الخروج لأعدّوا لـه عـدة (ولكـن كره الله انبعـاثهـم فثبطهم وقيل اقعدوا مـع القاعدين) (١٠٥) نعم و أخرى أهـم من الأولى انه لما اجتمعـت كلمة الكفر من أقطـار الأرض،وأطراف الدنيـا، ومغرب الشمس ومـزخر البحر مـاتأخر منهـم متأخـر، ولا استبعد المسافـة بينك وبينهم مستبعـد، وخرجوا من ذات أنفسهـم الخبيثة لاأموال تنفـق فيهم، ولا ملوك تحكـم عليهم، ولاعصا تسـوقهم، ولاسيف يـزعجهم (مهطعين إلى الـداع) (١٠٦) سـاعين في أثـر السـاعـي (وهـم مـن كـل حـدب ينسلون)(١٠٧)ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يامولانا كما قال أبقاك الله:

ولسـت بملـك هـازم لنظيره
ولكنـك الاسـلام للشرك هـازم

هـذا: وليس لـك من المسلمين كـافة مسـاعدة،إلا بـدعوة، ولامجاهـد معـك إلا بلسانـه، ولا خـارج معـك إلاّ بهمّ، ولا خارج بين يـديـك إلا بالاجـرة، ولا قانـع منك إلا بـزيادة تشترى منهـم الخطوات شبرا بـذراع،

وذراعا بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم، والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لانتباعد عن المنزلة، وآخر لم لانميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ماكان فيه حظ، ومشير لمستقبل مايلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة، وماكأنها طليعة الجيش، ولا قفل الدار، ولاخرزة السلك، إن وهت تداعى السلك وأنبت في يد الملك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر.

ولكن مولانا صفيحة وجهه
كضوء شهاب القابس المتنور
قليل التشكي للمهم نصيبه
كثير الهوى شتى النوى والمسالك

ولا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، ومامراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسر عليه، وحببه إليه فرب ممتحن بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هى داؤه، ومرحوم من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لايتغير لمولانا أبقاه الله وجه عن بشاشه، ولاصدر عن سعة، ولالسان عن حسنه، ولا ترى منه ضجره، ولا تسمع منه نهره، فالشدّة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا عز نصره بطرا، فلا حدث له ساعات الامتحان ضجرا، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه يحفظهما:

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى
ومامنهما الاسقانا به الدهر
فما زادنا بغيا على ذي قرابة
غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر (١٠٨)

والمملوك يسمع بأن مولانا عز نصره على مايعهده من سعة صدره، آسر منه بما يسمعه من بشائر نصره ويا ليتني كنت معهم، وماذا كانت تصنع الأيام إما شيبا من مشاهدة الحروب، فقد شبنا والله من سماع الأخبار، أوغرمايمكن خلفه من الوفر، فقد غرمنا في بعد مولانا مالاخلف له من العمر، أومرض جسم فخيره ماكان الطبيب حاضره، ولقد مرضنا أشدّ المرض لفراقه، إلا إن التجلد ساتره».

ومن كتاب آخر:« المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قلب المولى فيروّحه ولايحمله ويشغله بما يثقله، ويوصي المولى بقلوب المسلمين، وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله من علم أنه لاتوفيه رواتب الحياة اشتغل قلبه، واستطار لبه، وضعفت نفسه، فيحسب المولى من جهاده تفقد جسمه، وآلات مطعمه، وترويح خطراته،فقد بلغ من حمله على نفسه مايخشى على مولانا الإثم فيه، وانما نتجشم كل مشقة لتسلم منه، ونحن في ضرّ قد مسنا، ولانرجو لكشفه إلا من ابتلى به، وفي طوفان فتنه، (ولاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) [١٠٩] ولنا ذنوب قد سدّت طريق دعائنا، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا، ولله قدر لاسلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لاحول ولا قوة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) [١١٠] وقد جمع العدّو لنا، وقيل لنا اخشوه فقلنا (حسبنا الله ونعم الوكيل) [١١١] متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس لنا إلا الاستعانة بالله فما دلنا الله في الشدائد إلاّ على الدعاء له،وعلى طروق باب كرمه، وعلى التضرع إليه (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) [١١٢] ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرحمة، ومن اليأس من الفرج، فانه لاييأس منه إلا مسلوب الرشد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه، ولاحيلة إلا بترك الحيلة، بل قصد من تمضي أقداره بلا حيلة، سبحانه وتعالى إن علم الله من جند مولانا أنهم

قد بذلوا المجهود، فقد عذرهم فيعذرهم المولى، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة وقصروا في نصرة كلمة الله، فيكفيهم مقت الله، والمملوك يذكر المولى بصبره، وبرحب صدره، وبفضل خلقه وبتقواه لربه، وبمداراة مزاجه وببر القلوب الإسلامية وببر جسمه، (وإن كان كبر عليك اعراضهم) الآية إلى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) (١١٣) والمولى أولى بهذا البيت

لابطر إن تتابعت نعم
وصابر في البلاء محتسب

قيل للملهب: أيسرك ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره العجز، ولابدّ أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لاراد لحكمه، فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو ساخط موزور، فيصطلي نار الشدّة أعاذه الله منها، ولايحجد راحة الثواب، وفر الله حظه منه، ومن شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولايقطع الظهور التي لاتشتدّ إلاّ به، ولايضيق صدور الا تنفرج إلاّ منه، وماشرد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلاضائقة القوت بعكا، ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس واعفاؤها من الفكرة، فقد علم مولانا المباشرة أنه لايدبر الدهر إلاّ رب الدهر، ولاينفذ الأمر إلاّ بصاحب الأمر، وأنه لايقلّ الهم إن كثر الفكر.

قد قلت للرجل المقسم أمره
فوض إليه تنم قرير العين

وكل مقترح يجاب اليه إلا ثغراً يصير نصرانيا بعد أن أسلم، أوبلدا يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يامولانا هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى

فيها: ياخيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس،وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها هي نعمة الله عليك، وغراسك في الجنة، ومحملات محضرك (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا) (١١٤) وهي مجوّزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: لو كان الصبر والشكر بعيرين ماباليت أيهما ركبت، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لانطمع في اللحاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، مااستعمل الله في القيام بالحق إلاّ خير الخلق، وقد عرف ماجرى في سير الأوّلين وفي أنباء النبيين، وإن الله تعالى حرض نبيه ﷺ على أن يهتدي بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدي بأولي العزم منهم، وماتغلو الجنة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلاّ من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا، وكان ماقد كان لم يكن ويذهب التعب ويبقى الأجر،وإنما يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لايحمل المولى هما يضعف به جسمه، ويضر مزاجه، والأمة بنيان وهو أبقاه الله تعالى قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق، ومما يستحسن من وصايا الفرس: إن نزل بك مافيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ماليس لك فيه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع، ورب واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه، وكفى خطبة(وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) (١١٥) هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها، وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره، ولا تعويلا على قوة إلا على قوته، فهنالك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولايقل متى نصر الله، وليصبر فإنما خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلي: أنت المعافى، وليرض عن

الله سبحانه فإن الراضي عن الله هو المسلم الراضي، فأما أخبار فننة بلاد العجم، فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم،(قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) (١١٦)».

وكتب السلطان الى القاضي الفاضل كتابا من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من امارات النصر ، ويقول « ما اخاف الا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها» فكتب اليه الفاضل : « فأما قول المولى إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعفيت، فيكفي مستغفر لسان السيف الاحمر في الجهاد، ويكفي قارعا لابواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، ولعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامكومنصرفك،وطوبى لقدم سعت في منهاجك، وطوبى لوجه تلثم بمثار عجاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت» .

فصل

كان بلغني أن السلطان رحمه الله لما اشتدأمر الفرنج على عكا ، أرسل إلى ملك المغرب يستنجده عليهم ليقطع عنه مادتهم من جهة البحر، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فإن العماد والقاضي لم يتعرض له في كتبهما، غير ان العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ماكان أرسله لأجله، وسيأتي ، وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها، ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه، ماكنت أرومه فنقلته على وجهه.

قال : نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل، ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر الى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله ، يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حصر الفرنج خذلهم الله عكا بعد كسرة حطين، وفتح بيت المقدس ، والكتاب الذي سير الى المغرب، والهدية التي حملت يأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير الاجل الاسفهسلار الاصيل ، العالم المحترم شمس الدين ، عدة الاسلام ، جمال الانام ، تاج الدولة ، أمير الملة، صفوة الملوك والسلاطين ، شرف الأمراء، مقدم الخواص أدام الله توفيقه، ويسر طريقه وانجح مقصده ، وأعذب مورده، وحرس مغيبه ومشهده، وأسعد يومه وغده، يستخير الله سبحانه، ويتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الاسلامية المغربية ، حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها ، ويستقرىء في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم ، وأشغالهم وأفعالهم ، ومايحبونه من القول نزره أو جمه،ومن اللقاء منبسطه

أومنقبضه، ومن القعود ، مجالسهم مخففة أومطولة ، ومن التحيات المتهاداة بينهم ماصيغته وماموقعه، وهل هي السنن الدينية ، أو العوائد الملوكية ، ولايلقه الا بما يحبه، ولا يخاطبه الا بما يسره ، والكتاب قد نفذ اليه ولم يختم لتعلم ماخوطب به، والمقصود أن تقص القصص عليه من أول وصولنا إلى مصر ، وماأزلنا من البدع بها، وعطلنا من الإلحاد فيها، ووضعنا من المظالم عنها ، وإقامة الجمعة، وعقد الجماعةفيها، وغزواتنا التي تواصلت إلى بلاد الكفار من مصر، فكانت مقدمة لملك الشام الاسلامي باجتماع الكلمة علينا، ومقدّمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا، وتفصيل ماجرى لنا مع الفرنج مع الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلها الله تعالى مقدّمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم ، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس ،و تلك على الاسلام منة الله العظمى إلى غير ذلك من أخذ الثغور وافتتاح البلاد واثخان القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب وخروج نجداتهم وكثرتها وقوتها،ومنعتها وغناها وثروتها، ومسارعتها ومبادرتها ، وإنه لايمضي يوم إلاّعن قوة تتجدّد ومبرة تصل، وأموال واسعة تخرج ، ومعونات كثيرة تحمل وإن ثغرنا حصره العدوّ، وحصرنا نحن العدّو،فما تمكن من قتال الثغر ، ولاتمكن من قتالنا ، وخندق على نفسه عدة خنادق، فما تمكنا من قتاله ، وقدّم الى الثغر أبرجة أحرقها أهله، وخرج مرّتين الى عسكرنا فكسر العدو الكثير أقله، فانه اغتنم أوقاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد ساعات لم تكن الأهب فيها مأخوذة ، وأقدم على غرّة استيقظت فيها نصرة الله لنا وخذلانه لهم، فقتل الله العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت احدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار ، خرجت أنفسها إلى مصارعها، وهمدت أجسامها في مضاجعها ، والعدو وإن حصر الثغر فإنه محصور ، ولو ابرز صفحته لكان باذن الله هو المثبور المكسور، وتذكر مادخل

الثغر من اساطيلنا ثلاث مرات ، واحراقها لمراكبهم ، وهي الاكثر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الاطهر.

وإن أمر العدو مع ذلك قد تطاول، وخطبه قد تمادى ، ونجدته تتواصل، ومنها ملك الالمان في جموع جماهيرها مجمهرة ، وأموال قناطيرها مقنطرة ، وإن عساكرنا لو أدركته لما استدرك ، ولولا سبقه لها بالدخول إلى انطاكية لتلف وهلك ، وتذكر أن الله قصم طاغية الالمان، وأخذه أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيا الذي هو طريقه إلى الاحراق في نار الآخرة ، وإن هذا العدّو لو أرسل الله عليه أسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ، لأخذنا العدو إما بالجوع أو الحصر، أ و برز فأخذنا بيد الله تعالى التي بها النصر، فإن كانت الاساطيل بالجانب المغربي ميسرة ، والعدة منها متوفرة ، والرجال في اللقاء فارهة ، وللمسير غير كارهة، فالبدار البدار ، وأنت أيها الامير فيها أوّل من استخار الله وسار، وإن كانت دون الاسطول موانع إما من قلة عده، أومن شغل هناك بمهمة أو بمباشرة عدّو إما تحصن منه العوره، أو قد لاحت منه الفرصة، فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة، ولا انواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال ، وما رأينا أهلا لخطابنا ، ولا كفؤ ا لانجادنا ، ومحقوقا بدعوتنا ، ولا ملبيا بنصرتنا إلا ذلك الجناب ، فلم ندعه إلا لواجب عليه ، والى ما هو مستقل به ومطيق له ، فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس في العدوة القصوى شجرتها فينال من في العدوة الدنيا جناها، فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر، ولا يعين الاسلام الاسلام ، وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدّو جاره، والجار أقدر على الجار ، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار، ولانه بحر ، والنجدة بحرية، ولا غرو ان يجيش البحار البحار، وإن سئل عن المملوكين بوز با وقراقوش وذكر مافعلا في اطراف المغرب بمن معهما من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال ، فيعلمهم ان المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه

المماليك والأمراء ، ولا من المعدودين في الطواشيةوالأولياء وانما كسدت سوقهما وتبعتهما ألفاف أمثالهما ، والعادة جارية أن العساكر إذا طالت ذيولها ، وكثرت جموعها ، خرج منهاوانضاف اليها، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هذان المملوكان ممن إذا غاب أحضر، ولا ممن إذ ا فقد افتقد، ولا يقدّر في مثلهماأنه ممن يستطيع نكاية ، ولا يأتي بما يوجب شكوى من جناية ، ومعاذ الله أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الارض ، ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وان سئل عن النوبة المصرية وما فعل بجندها ، فليعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكفار وأطمعوهم في تسليم الديار ، فأشفى الاسلام على أمر شديد، وكاد يقرب على الكفار كل أمر بعيد، فلم يعاقب الجيش بل أعيان المفسدين ، فقوبلوا بمايجب، وكانوا دعاة كفر وضلال ومحاربين للّه بما سعوا في الارض من فساد، فأما بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا فإنهم اقتصر بهم على أن لايكونوا جندا، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه وشملته آمنة تسكنه، وأما الهدية المسيرة على يد الامير فتفصيلها يرد في كتاب الامير الاجل الاسفهسلار العالم الكبير مجد الدين سيف الدولة، أدام اللّه علوه، مقرونا بالهدية المذكورة ، ومع قرب الشتاء فلم يبق الا الاستخارة والتسمية ، ومبادرة الوقت قبل أن يغلق البحر انفتاح الأشتية ، واللّه سبحانه يوفق الأمير ، ويسهل سبيله ، ويهدي دليله، ويكلأه بعينه ، ويمده بعونه ، ويحمل رحله ، ويبلغه أهله، ويشرح له صدره، وييسر له امره إن شاء اللّه تعالى .

وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة

فصل

في نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهدية

العنوان :

بلاغ الى محل التقوى الطاهر، ومستقرّ حزب اللّه الظاهر من المغرب أعلى به الله كلمة الايمان ، ورفع به منار البر والاحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف ين أيوب

أما بعد : فالحمد لله الماضي المشية، الممضي القضية ، البر بالبرية ، الحفى بالحنفية ، الذي استعمل عليها من استعمر به الارض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة والفرض، وزان سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض، وصلى اللّه على سيدنا محمد الذي أنزل عليه كتابا فيه الشفاء والتبيان ، وبنى الاسلام بأمته التي شبهها صاحبها بالبنيان ، وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم ، فنصروه وظاهروا رسوله صلى الله عليه وسلم فنصرهم وأظهرهم ، ويسر بهم السبيل ، ثم السبيل يسرهم ، وان الله بهم (لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم)[١١٧] (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا ربنا انك رؤوف رحيم)[١١٨] وهذه التحية الطيبة الكريمة الصيبة، الواجبة الرد، الموجبة للقصد، العذبة الورد، المتنفسة عن العنبر والورد، وقاده على دار الملك ومدار النسك ، وجل الجلالة ، وأصل الاصالة ورأس الرياسة، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلم العلم ، وقائم الدين وقيمه، ومقدّم الاسلام ومقدّمه، ومقتضى دين الدين ومثبت المتقين على

اليقين ، ومعلي الموحدين على الملحدين ، أدام اللّه له النصرة، وجهز به تيسير العسرة ، وردّ له الكرةوبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الالفة، ومهد له درجات الغرفة ، وعرفه في كل مايعتزمه صنعا جزيلا جميلا ولطفا حفيا جليلا ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو (اشد وطئا وأقوم قيلا) (١١٩) ،تحية استنير منها الكتاب ، واستنيب عنها الجواب وقد حفز لها حافزان أحدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا إلى ان تتيسر الاسباب ، والآخر مرام عظيم ماكره اذا استفتحت به الابواب ، وكان وقت المواصلة ، وموسم المكاتبة هناءة بفتح البيت المقدس ، وسكون الاسلام منه الى المقيل والمعرّس ، ومافتح اللّه للاسلام من الثغور ، وماشرح لأهله من الصدور ، ومأأنزله عليهم من النور ، ولم يخل المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر، وملاحظات أنوار ذلك البدر، ومطالعات تلك الجهة التي هي وان كانت غربية فإن الغرب مستودع الأنوار ،وكنز دينار الشمس ، ومصب أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار (ان في ذلك لعبرة لاولي الأبصار)(١٢٠) ولم تتأخر المكاتبة الا ليتم الله ما بدأ من فضله ، وليفتح بقية مالم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من الشام مدن وأمصار وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل وللاسلام معاقر، ولبني الكفر مصانع، ولبني الاسلام مصارع والباقي بيد الكفر منها ثغر طرابلس ، وصور ، ومدينة انطاكية يسر الله أمرها ، وفك من يد الكفر أسرها ، وإذا أمن المؤمن على هذه الدعوة رجي ايجابها ، وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين ، بعد أن كسر العدّو الكسرة التي لم يجبر بعدها، وألجىء الى حصونه التي للحصر أعدها، وكان يومها كريما ، ولطف اللّه فيها عظيما ، قبضت كل حاجة في النفس ، وأغنت المسلمين ، فأما العدّو بعد يومها ، فكأن لم يغن بالامس ، وكانت على أثر غزوات قبلها ، فما الظن بالمجهزة بعدالنكس ،

ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فرع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب، فأجابوا رجالا وفرسانا، وشيبا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا اليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا ماعونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ولا أرسانا تقتادهم، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه، ولا يحتاج الى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على اسمائها ، واتت العزيمة بحمد الله على اشخاصها عند لقائها، ومنهم ملك الالمان خرج في جموع برية من الله تعالى برية، ملأت الفجاج وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهم من ركب ثبج البحر فركب الاجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشية الرجاج ، لينصر دينا مشبه الزجاج ، يقبل للكسر ولا يسرع اليه الجبر، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامة والى قاع كفر، وجلب الكفار الى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملؤوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب مابين أقوات وأطعمة، وآلات وأسلحة وشكة وجنة، وحديد مضروب وزبرة ، ونقدي ذهب وفضة إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة لاتشرق شارقة إلا طلعت على العدّو من البحر طالعة تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ماأكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ووفور مادّة، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر مامنعهم البر، وبطروا لما كثروا، ونظروا فإنهم لايستطيعون أن يلقوا ويصحروا ويستطيعون أن يحصروا على ان ينحصروا ، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ، ويصل إلى المقاتل مايحتاجه من أسلحته وازواده ، وبمن يكثر به من مقاتلته واجناده، فانقطعت مادّة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جانب البر، فخندقوا على نفوسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم، وعقدت عدتهم مائة ألف أويزيدون ، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون، فاتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها،فنفذت عمارتنا إلى الثغر، وأوصلت إليه الأقوات التي حمل منها البحر

مالايحمله الظهر، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر . ومالقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة ، فعدد سراكبهم كبيرا ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمه، والقليل مع العزم الصادق كثير، واستمر مقام العدّو محاصراً للثغر محصوراً منا أشد الحصر ، لايستطيع قتال الثغر، لانأمن خلفه ولا يستطيع الخروج الينا خوفا من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول اليه لأنه قد سوّر وخندق وحاجز من وراء الحجرات وأغلق ، ولما خرج ملك الالمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد، قويت به نفوسهم وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا انه يزعجنا من مخيمنا ،ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية ، فسلك ذات الشمال ،متوعرا فيها محتجزاً عن لقائها مظهرا أنه صريع داء ومابه غير دائها ،وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شيبة اللعن اللعين ، قائد جيشه إلى سجن سجين ، قد هلك في طريقه غرقا، وخاض الماء فخاضه الماءشرقا ، وبقي له ولد هو الآن المقدّم المؤخر وقائد الجمع المكسر، وربما وصل بهم إلى عكا في البحرتهيبا ان يسلك البر، ولوسبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى انطاكية لأخذوه أخذا سريعا ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه لافي النهر صريعا ، ولكن لّله المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمشي إلى البلية، فإنه لولا احتجار مقيمهم بالخنادق، واحتياز واصلهم بالمضائق لكان لنا ولهم شأن ، وكان ليومنا في النصرة الكبرى بحول اللّه ثان لا يثنيه من العدو ثان ، ولما كانت حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغرّ المحجلة له المؤمرة المؤملة الكاسفة لكل معضلة ، الكاشفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة ، والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمه ، والسير به معملة وعالمة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف في

اغمادها ، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادهـا، لايزال في سبيل اللّه غاديا ورائحـا ، ومـواجهـا ومكـافحا ، ومـا سيـا ومصـابحـا، يجوز لجة البحـر بالمجـاهديـن ملوكا على الأسرة ، وغـزاة تصافح وجـوهها السيـوف ، فلا يخمد نور الاسرة بذود الفرق الكافـرة ، ولو ترك سبيلها لملأ قراره كل واد، (كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله) (١٢١) ولولاه لأخمد شرارة كل زناد. كان المتوقع من تلـك الدولة العالية ، والعزمة الغاديـة مع القدرة الوافية، والهمة المهـدية الهادية، أن يمـد غرب الاسلام المسلمين بـأكثر مما امـد به غرب الكفـار الكافـرين ، فيملأهـا عليهم جواري كـالاعلام ، ومـدنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بـالأيام تطلع علينا معشر الاسلام امالا، وتطلع على الكفـار آجالا ، وتردنـا إما جملة وإمـا أرسالا ، مسوّمـة تمدها ملائكـة مسوّمة ومعلمـة، تقدم حيازيمهـا إقدام حيزوم تحت أصحـابه، وإنما هي منه عزمه، كانـت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمـة ، ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به في هذه التحيـة ، فقد تحفل السحاب ، ولاتمطر إلى أن تحركها أيـدي الرياح ، وقـد ينزل النصرة فلا تظهـر الى أن تضرع اليها ألسنة الصفاح،وسير لحضـور مجلسه الأطهر ومحله الأنـور ، الأمير الاجل المجـاهد الأمين الأصيـل، شمس الـديـن نور الاسـلام والمسلمين، سفير الملـوك والسـلاطين ، أبـو الحزم عبـد الـرحمن بـن منقـذ ، كتـب اللّـه سلامته،وأحسـن صحابته ، وما اختير للوفادة إلا مـن هو اهلها، ولا حمل الوديعـة إلا منّ هـومحلها،ولا بعـث لنهج الصلـة إلا من هـو مفتاحهـا ، ولأداء الامانة إلا مـن هو أ هلها ، ومهما استوضـح منه، وسئل عنه، فـإنه على نفسه بصيرة ، ومـن البيان ذو ذخيرة، وفي العـربية ذو بيـت وعشيرة، والمشاهدة له أوصف، على أ ن تلك الجلالـة ربما ذعرت البيان فأخلف، وماأجـدره بأن يصادف بسطـة على بساطـة، ونظرا يأذن لـه في القول على اختصاره، وتوسطه وافـراطه، فكل هو به واف، وكل هـو للفهم الكريم كاف، واللّـه تعالى يجعل هـذه العزمةمنـا في استنهاض العـزمة منه بـالغة

مبلغا يسر أ هل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه ، من الذين اتخذوا إلها من دونه ، والسلام الصادر عن القلب السليم ، والودّ الصميم ، والعهد الكريم، على حضرة الكرم العلية ، وسدّة السيادة الجلية، سلام مودّة ماوفد الغرب قبلها مثلها ، ورسالة ماخظرت إلى أن انفذت وراءها المحبة رسلها، وليصل السلام رحمة اللّه وبركاته، ورضوانه وتحياته إن شاء اللّه تعالى.

وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ،والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه واله وسلامه .

الهدية ختمة كريمة في ربعة مخيشة ، مسك ثلاثمائة مثقال ، عنبر عشر قلائد عددها ستمائة حبة. عود في عشرة أمناء. دهان بلسان مائة درهم واحدة . قسي بأوتارها مائة وقوسان . سروج عشرون . نصول سيوف هندية عشرون. نشاب ناسج خاص مريش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مجلدة سبعمائة سهم.

وكان اقلاعه من الاسكندرية في شيني عمارته مائة وعشرون . في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة ،ووصل إلى طرابلس أوّل البلاد في الخامس والعشرين من شوال ،وأقام بها إلى ذي القعدة ،وتوجه الى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص ، ودفع كتاب السلطان اليه يوم الخميس سابع ذي الحجة، وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة ، وفي هذا النهار حملت هدية السلطان إلى خزانته،وكان انفصاله من مراكش عاشر المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ووصل الى الاسكندرية في الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين .

فصل

لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التمس منه من النجدة ، وبلغني أنه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين على جاري عادتهم ، وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للشريعة غازيا توفي في سنة خمس وتسعين، وفيه يقول شاعره:

أهل لأن يسعى إليه ويرتجى
ويزار من أقصى البلاد على الوجا
ملك غدا بالمكرمات مقلدا
وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره
وتعطرت منه الرياح تأرجا
وجد الوجود وقد دجى فأضاءه
وراءه في الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن عمه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها :

هبت بنصركم الرياح الأربع
وجرت بسعدكم النجوم الطلع
ان قيل من خير الخلائف كلها
فإليك يا يعقوب تومى الاصبع
ان كنت تتلو السابقين فانما
أنت المقدّم والخلائف تبع

وقد مدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته
إلى بحر جود مالنعماه ساحل

إلى معـــدن التقـــوى إلى كعبـــة الهدى
إلى مـن سمـت بـالـذكـر منـه الأوائل
إليــــك أميرا لمسلمين ولم تــــزل
إلى بـابـك المأمـول تـزجـى الـرواحـل
قطعـت اليـك البر والبحـر مـوقنـا
بـأني بـذاك القطـع بـالنجـح كـافـل
فما راعنـــي مـــن وجبـــة البر رائع
ولا هـالنـي مـن زاخـر البحـر هـائل
ومـن كـان غـايـات المعـالي طـلابـه
يهون عليـــه كـــل أمـــر يحاول
رجـوت بقصـديـك العلى فبلغتهـا
وأدنـى عطـايـاك العلى والفضـائل
فـلا زلـت للعليـاء والجود ثـانيـا
تبلغـك الأيـام مـا أنـت آمـل

وابن منقـذ هذا مـن أهل بيـت أدب وشعر، ولـه على ماوجـدت بخط بعض الثقاة :

تصرّم عمـــري في التغـــرّب والنـــوى
وأفنـــى ارتحالي طـــارفي وتـــلادي
وأخلقـــت الايـــام بـــرد شبيبتـــي
وأصلـد مـن وقـع الخطـوب زنـادي
وأشغلنـــي الحرص الموكـــل في الـــورى
عـن العمـل المنجـي ليـوم معـادي
فـلا راحـة الأخـرى تيقنـت نيلهـا
ولا أنـا في الـدنيـا بلغـت مـرادي

وله على لسان بعض غلمانه:

ورب قميـص دعـاني إلى احـــــ
ـــتمال الـرثـاثـة منـه العـدم

أقطـــــب وجهـــــي لـــــه كلما
تهلـــل لي ضـــاحكـــاً وابتســـم

ومن كتاب فـاضلي الى بعض اخوانه :« وأما الاخبار المغـربية وإخلال جـانبهـا ، وضعـف مطلـوبها وطالبهـا فـإذا نجـزت الظلماء الى المغـرب فبحق، كما ان الانوار النـاصرية قد تناصرت في الشرق ، فالله يسعد بلاد الدنيا بالانخراط في سلك ملكه ، ويمكن مـن مؤمنها حكم عدالته ومن كـافـرهـا سيـف فتكته ، والله يجزيها الخير عـن نيتهـا في الخير، ويكتـب سلامة عزمها في طرق النفع أينما يممت السير».

ثم اني وقفت على كتاب فاضلي للسلطان يشعر بـأن الرسالة المغربية لم تكـن برأي الفـاضـل ، ولاهو مختـار لها.صـورتـه:«المملوك يقبـل الارض بالمقام العـالي المولوي الملكي الناصري ، جعـل له الله في الدنيـا والآخرة المقام العـالي، وأبقى دولتـه التي هـي الايام بـالحقيقة والايـام قبلها هـي الليـالي ، وينهـي ان الظـاهـر ان المملـوك عنـد المولى ليـس مـن أ هـل الاتهام،وان له وللّـه الحمد اثارا في دولتـه تشهد بها الايام، واثـار السيوف طـاحت وبقيـت اثـار الاقـلام،والرسـالـة المغـربية ليـس المملـوك مشيرا بتركها،ولا كـارها لسفر رسـولها، ولا مستبعداً مصلحـة قريبة منهـا، لكن على وجهها ، وقـد نجزت الهدية المغربيـة على ما أمر به، وكتـب الكتاب على مامثل ، وفخم الخطاب والوصـف فوق العادة ، وبما لايمكن مخاطبة مخلوق بـأكثر منـه،وعند وصـول الامير نجم الـدين مـن المخيم المنصـور فاوضه المملـوك في أنه لايمكن الا التعريض لا التصريح بما وقـع له أنه لاتنجح الحاجة إلا به من لفظة أمير المؤمنين ، وأن الـذين أفاضوا في هذا الحديث وأشـاروا به مـاقالـوه نقلا ، ولا احـاطوا بـه قياسـا ، ولا عرفـوا مكاتبة المصريين قديما، وآخر ماكتب في أيام الصالح بن رزيك فخوطب فيـه أكبرأولاد عبد المؤمـن وولي عهـده بـالامير الأصيل النجـار، الجسيـم الفخار ، وعـادت الاجوبة الى ابن رزيـك وهو وزير سلطـان مصر الذي

اتباع مولانا اليوم مائة مثله، مترجمة بمعظم أمره ، وملتزم شكره ، هذا والصالح يتوقع ان يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه، وماهو الا ان يهرب مملوكان طريدان منا فيستوليان على أطراف بلاده، ويصل المشار اليه بالامر من مراكش الى القيروان في ستة اشهر فيلقاهم فيكسرا مرة، ويتماسكا أخرى، واعلم الامير نجم الدين بذلك فأمسك مقدار عشرة أيام، ثم أنفذ الامير المذكور اليه على يد ابن الجليس بأن الهدية أشير عليه بأن لايستصحبها ، وان استصحبها تكون هدية برسم من حواليه، وان الكتاب لايأخذه الا بتصريح أمير المؤمنين ، وان السلطان عزنصره رسم له ذلك ، والملك العادل دامت قدرته بأن لايشير الا به ، وانه اذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان ابقاه اللّه من لسانه فأجابه المملوك بأن الخطاب يكفي ، وطريق جحدنا له ممكن والكتابة حجة تقيد اللسان عن الانكار ، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الاجماع ، مبايعين من لاينصره اللّه ولا شوكة فيه، ولايحل اتباعه، مرخصين الغالي ، منحطين عن العالي ،شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لاتحل طاعته، متقلدين لمن لاتصح ولايته، فتفسد عقود الاسلام وينفتح باب يعجز وارده عن اصدار ، بل تمضي وتستشف الامور وتكشف الاحوال، فان رأيت للقوم شوكة ولنا زبده،فعدهم بهذه المخاطبة ، واجعل كل مانأخذه ثمنا للوعد بها خاصة ، فامتنع وقال: أنا أقضي اشغالي وأتوجه إلى الاسكندرية وانتظر جواب السلطان عز نصره ، ومايفوت وقت وإلى أن أنجز أمر المركب ، وارتاد الركاب فسير المملوك النسخة وان وافقت فينعم المولى على المملوك بترجمة يلصقها على ماكتبه،ويأمر نجم الدين بتسلم الكتاب، على ان ابن الجليس حدثه عنه انه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة بها، فأما الذي يترجم به المولى عز نصره فيكون مثل الذي يدعى به على المنبر لمولانا وهو: الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب، أدام الله غنى مولانا بالفقر الى ربه، واذا كتب الصالح ابن رزيك اليهم من السيد

الأجل الملك الصالح قبح ان يكتب اليه مولانا أبقاه الله «الخادم» وهذا مبلغ رأي المملوك ، والمؤمن لايذل نفسه، وقاسم الارزاق يوصلها وان رغم من جرت على يده ، وان كان مولانا أعز الله نصره يقول: أنت غافل وغائب، وماتعرف ما الاسلام فيه ، فلو حضرت وعرفت ماشققت الحديث ، فجواب ماتكتب:بعد سنتين فما يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسيء الظن بالله ، واذا كانت لنا إن شاء الله أخذت خالية ممن نطلب الآن مواساته، واذا كان المملوك مستجهلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها . والأحوال المملوك غائب عنها ، فالمفهوم من الأمر أن يتولى من الكتابة ترتيب المقاصد ، وتحرير الالفاظ ، وتنضيد الخبر عما اجراه الله تعالى على يد مولانا عز نصره ، والثاني المطلوب فقد فعل هذا كله في النسخة ، وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها، والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى ثم بالسلطان عزنصره من تعريضهم لكدر الحياة وتوقع الخوف ومعاداة من لايخفى عنه خبر ولا تقال به عثرة، ويكفي ان المولى انعم بخطه في كتابه الى المملوك ، وفيها ماهو بخط حضرة سيدنا الاجل عماد الدين الكاتب الاصفهاني حرسه الله تعالى لماوصى بأن لايناظر في الخطاب ماصرح باللفظة، فهي اما تقية فالمملوك اولى بها، واماستهانة فنفس الملك لاتقاس بنفس المملوك ، فان كان ولابد فالنسخة بين يديه، والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة مايحتاج الى تعليم ، والكتاب الذين يستقلون بكتابة النسخة معدومون، وقد ناب المملوك عنهم، والكتاب الذين يستقلون بالتبييض موجودون فينوبون عن المملوك في التبييض ، والافكيف يسير رسول بكتاب من مصر بلا خط سلطان ، وبغير حضرته كتب ولا بهديه سار، وبمحضر من البغاددة والمغاربة يعلمون أن الكتاب كتب بمصر ، ويشهدون بما لم يروه ومالم يقرؤوة من الخطاب ، ولو وصل من المولى ادام الله أيامه كتا . مختوم وسير ولم يعلم مافيه لانقطع فضول كثير وحمدت أراجيف شنيعة، ولا يعتقد المولى أن المملوك يعظم القصص فما للألسنة والاعين

شغل إلاّالسلاطين وأفعالهم واقوالهم ، ولا للخلق خوض إلا في أوامرهم وأحوالهم، ولو علم المملوك أن هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى أبقاه اللّه لهان عليه، ولكنه مضرّة بغير منفعة ، وتعرّض لماتذم عاقبته، أويبقى على ا لخوف منه ، وذلك مما لايقتضيه حسن عهد المولى، وفضل رأفته فمقصود المولى ابقاه اللّه تحصيل تبييضها بين يديه ، وربما حصل استنارة، وامنت المكاره فيه، وغمضت العيون عنه وشحت الأيام عليه، طالع المملوك بذلك».

فصل

وللقاضي الفاضل رحمه اللّه من كتب أُخر مايشرح لنا بعض ماتقدم ، ومالم يذكره أحد من أرباب السير منها قوله: «كتاب بغداد كتاب بارد، غث جامد، مافيه مقصود لقاصد ، ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب الذهب الحار فيضرب في حديد بارد» ومنها فيما خرّب من البلاد الفرنجية المغنومة :«خراب البلاد في هذا الوقت الضيق لاشبهة في تقويته لنفس العدّو واضعافه لأنفس المسلمين ، وكان من يسمعه يفجأه من بديهة اليأس مايقطع وجأه. المولى يعلم أن العدو أخذها من المصريين في تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرة وبالهدنة مرةأخرى وبالقتال مرات، وبولاة سوء لوكان فيهم خيرا لما عجزوا عنها ، ونحن قد حملنا عن العدو المؤنة بتخريب البلاد التي كان العدّو يريد أن يحاصرها وينازلها، وينصب المنجنيق والبرج عليها، ويخاف النجدة أن تصلها، وقوّة الاسلام أن تثوب اليها، ويتوقع أن يبدهه المصاف قبل النزول عليها ، فعرّفناه أنه قادم على من لاسلاح له إلا أن يلقي السلاح، ولاحفظ للبلاد إلا أن يخربها ، فقد نكلنا عن اللقاء ، وفررنا قبل المواجهة،وزدنا زيادة عجيبة وهو أن المنهزم ينهزم بالرجال ونحن ننهزم بالبلاد» ثم قال: «وثبوت مولانا على عكا هو حراستها وحفظها وقوّة نفس من بها، وأهون الاعداء ملك الألمان لايشك مولانا أن جمعه لايفي بعشر قراقر من ستين قرقورة وصلت الى الفرنج نجدة من بلاد المجوس في السنة الماضية ، وانما الزائد سمعة ملك وقد هلك ، ورأس قد قطع، وقائد جيش وقد كبا كالجمال

ومنها عن ورود كتاب السلطان إليه يبشر بعافيته من مرض عرض له في شهر رمضان:« أسفرت بشارته عن أن المولى أتاه الفرج وغذاؤه الفروج، واستقل بحمد اللّه، وصح وقالت العافية: للمرض تنح، وكان مافي كتابيه الأولين من تعريق النون من الحمد لله رب العالمين فيه أثر

ضعف ينتقده صيارفة الخطوط ، فأما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريقة ، وقويت اليد وطلعت النون أهم الينا من مطلع الهلال الفطري الذي يشبهه الشعراء بالنون ومنهم من قال:

ولاح هلال مثل نون أجادها
يذوب النضار الكاتب ابن هلال

وهذا من أنواع الفراغ الذي ماأوجبه المملوك الا لمسرته بعافية المولى أدامها اللّه، وأدام المسرة بها له وللخلق فمايشبهها المملوك إلا بنور الشمس الذي له في كل مكان أثر، ولكل عين به نظر، فلا أخلى اللّه الدنيا من اثاره والعيون من أنواره ، وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عافيته به من المرض الذي هو العدّو ، فيجمع اللّه تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين ، ويستخدم شكرهم للنعمتين ، فقد جلا اللّه بهذا المرض سيف اللّه الذي هو المولى وماصقله إلا لتصدأ به قلوب أعدائه ، ومن فوائد هذا المرض أن المولى يستأنف العمر جديدا و العزم حديدا، ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر، واعضاء قد فارقها ما كان سبب الضجر»

ومنها:«وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه فلا أخلى اللّه مولانا من القدرة عليها ، وهنيئا له أن اللّه سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي صلى اللّه عليه وسلم يطالبه بحسن الخلافة في أمته، والسلف الصالح من هذه الامة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على مايفعله المولى، وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد، وبقية الأمة تطالبه بالأمن في سربهم، والاستقامة في كسبهم والخفارة في سبلهم، ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه اللّه اليها ، ولمعالي الأمور أعانه اللّه عليها، وإذا عدّد مايراد منه فلا بد أن يعدّد مايسر عليه فهل عدم من اللّه تعالى قط نصره، وهل استمرت به قط عسرة ، وهل تمت

لعدو قط عليه كره، وهل بات قط إلا راجيا ،وهل أصبح إلا راضيا ، ألا يعلم أن اللّه تعالى ذخر له من الصالحات مالم ير كفؤا له غيره،ألا يحصي من سبقه من الملوك إلى الدنيا فعجزوا عما سبق إليه المولى من الآخرة ، وهل تعرف راية قاتل تحتها في سبيل اللّه إلا رايته، وهل يعرف مال ينفق في سبيل اللّه إلا ماله ، وهل يسمع في مجلسه إلا كتاب اللّه يتلى، وسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تقرأ ، أويرى به إلاّ الخيل تعرض، والسلاح يقلب،لاأقداح الشاربين ، ولا أصوات المغنين ، ولا وقائع الكذابين ، ولاسعايات النمامين ، ويحق إذا توافر حظ مولانا أبقاه اللّه على تشبيه الملوك ، فإذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فإن مجلسه أولى بأن يكون مسجداً من كل مسجد، ولا غرو أن تعترف المدائح كما تعترف الضوال ، وان تتبع كما تتبع الطرائد،(ولينصرن اللّه من ينصره)(١٢٢)

لعل المولى عز نصره قد نفذ إلى جانب الشمال جماعة فإن صاحب أنطاكية خذلة اللّه عاث وشعث، وخلا الجبان بأرض فطلب الطعن وحده، لو قرن أهل عكا—وكذلك يفعلون— بمشيئة اللّه ما هم فيه من جهاد بنية احتساب لما سبقهم إلى الجنة سابق ولا لحقهم بعدهم لاحق، فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حال، فله ثواب نفسه وثواب من جاهد بسببه ، فلا أعدم اللّه الخلق واحدا به استقام جميعهم، ومالكا قام برعاياهم فأقعد مايروعهم ، وشفيقا يقيهم بنفسه وبولده وبأخوته، ويتقدم إلى الأهوال امام مماليكه وأمرائه وعسكره وجملته كأنه منهم مكان بسم اللّه من الكتاب، ومكان الامام من المحراب، ومكان النواصي من وجوه الصاهل، ومكان الأسنة من وجوه الذوابل، وخير ماكان اذا لم تظن نفس بنفس خيرا ، وأغير ماكان على محارم اللّه إذا كانت أنفس الملوك غير غيرى، وقد اطمأنت القلوب إلى أن اللّه سبحانه قد كشف الغمة وفرجها ، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو قد أججها ، فما يتوقع من كتب مولانا أبقاه اللّه إلا ان الاسلام قد رضي بما يسخط

الكفر، ولا يسمع من قصصه الذي هو أحسن القصص إلا أن يقول ما قاله سميه على نبينا وعلية السلام(قضي الأمر)[١٢٣] فأما ملك الألمان فقد سلبه اللّه ماأضيف اليه كما كان المملوك رأى في منامه على كوكب.، واعلم به مولانا في ضمن رسالة فقال ابقاه اللّه قد قبلت البشرى، وصورة الرؤيا أن رسولا جاء من السلطان عز نصره إلى المملوك فقال:أكتب كتابا ببشارة ملك الألمان ، فقلت حتى أفكر، فقال الرسول اكتب بأن اللّه قد سلب ملك الالمان ماأضيف اليه، والمشهور ان ملك الالمان خرج في مائتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة الاف».

ومنها: «ورد كتاب من المهدية إلى الاسكندرية ثاني رجب بعد ستة عشر يوما من المهدية ، وذكر من فيه أخبارا ، وقد طولع بها ، ولما تكررت علمت صحتها، وهو أن عساكر الغرب الاسلامية نازلة على طليطلة ، وقد افتتحت عدّة حصون كافرة، وأن بوزبا شوهد بالمهدية موثقا بالحديد وقد نفذه قراقوش الى صاحب تونس ليسيره إلى بلاد الاندلس ، موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر ،وأن أهل صقلية من المسلمين إلى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فرنجها ومعتصمون بالجبال في أعمالها، وأن عسكر الفرنج قد خرج لانجاد أصحابهم بصقلية ، والمسلمون بها على توقع ورقبة وحذار وخيفة ، نصر اللّه كلمة التوحيد، وأهلك كل جبار عنيد، وان مراكب فيها أزواد للجنويين دخلت المهدية بأمان من صاحبها، فباعت بها وتزودت منها ، وانها قاصدة الشام خيب اللّه قصدها»

ومنها «وقد سير الحمل الآن من المجلس العزيزي بحضور فلان وفلان وكلهم مجتهد في الخدمة، ولما عرف المملوك انهم لايطرقون المعنى الذي يطرقه المملوك من تنبيه مولانا على أن يقتصد في الانفاق ، ويقدّر الاخراج للعلم أن هذا الحجر قد رمينا بعدمه، وسمع بخبر المولى فإنهزم فرارا من سطوة كرمه، والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع اسفارها ،

ووقوف معـائشها،وكساد أسـواقها ،وانكسـار تجارتها،ولولم تكن الـدراهم سلعةلاتخرج من مصركما يخرج الدينار، لما وجـدت كما يوجد الدينار، وإن تصريـف الـدراهـم بعـد أن يصير مستخـرجـا بـذهـب شغـل شـاغـل، واستخراج ثـان غير الاول، وعسى اللّـه ان يأتي بالفتـح أو أمر مـن عنده يحدث للاسلام نصرا عزيزا، وللكفر خذلانا سريعاً وجيزا.

مولانا خلد اللّه ملكه مـن وراء ضرورة لاتخفى عن المملوك، والمماليك من وراء ضرورة لاتخفى عـن المولى وصدر المولى بحمد اللّه واسـع وفرج الله منه قريب، وهـذه الضائقة لما يريده اللّه تعالى من حسـن موقع الفرج بعدهـا، فقد انفـق المولى مال مصر في فتح الشـام، وأنفق مـال الشام في فتح الجزيـرة، وأنفق مال الجميـع في فتح السـاحل، وينفق ان شـاء اللّه تعالى مال القسنطنطينية في فتح روميـة، والملوك كلهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهـم إلى أن يسلموها إليـه فيشكره اللّه على مـاأخرجه في سبيـل اللّه منها ، ويمقتهم على ماكنزوه من ذهبهـا وفضتها، فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقـه،فإن اللّـه سبحانـه لايضيق رزقـا على يده الكـريمة، لاسيما وقد أجرى عليها ارزاق خلقه»

ومنهـا« ينهي المملـوك وصـول رسول ملـك الـروم بما في صحبته مـن هديـة، وبما على لسانـه من رسالـة ،وبما على يده مـن كتاب، وحضر بين يدي الملك العـادل وجرى من المفاوضة مـا زبدته امتنان الملـك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية، وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقـة على حـرب السلطـان، وإطـلاق طـريقهـم ، وامتنـع وسـدّ الدربندات ، وحفظ عليهم الطرق، ووصـى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنـع دونهم، وجعـل موافقتـه أن البـلاد في هـذه السنـة غاليـةالسعـر، والمصلحة تقتضي أن لاتكون الحركة إلا بقـوة وعلى تمكن من الميرة وتأخير الحركة الى السنة الاخـرى» ثم قال:«وهذاملـك الروم خائف من الفـرنج على بلده،مـدافع عن نفسـه إن تم له الدفـع ادعى انه بسببنـا،وان لم يتم

ادعى انه غائب عـن مقصده ومقصدنا، وقد جعل مـااورده من أن يقال ان البطاركة في قيامـة من قبله، وان ينقل مـن ولاية الفرنج الى ان يـوليها الطاغيـة من أهـل عمله سببـا يبسط به عـذره بزعمـه عند أهـل جنسه ، ويـدفع بـه عن نفسـه لاسيما مع إقـامـة الخطبة الاسـلامية ، ونقلـه المنبر وفسحته في الصلاة واعزاز الكلمة الاسلاميـة ، أرغم اللّه بها أنفه، وعجل بسيفها حتفـه، ومولانا ابقاه اللّـه يتثبت في الاجوبة ، ولايجيـب الى ماعلى الاسـلام فيه غضـاضة ، ولا الى مـا للكفر فيـه قوة(ان ينصركـم اللّه فـلا غالب لكم)(١٢٤).

ومن كتاب آخر: « وصل إلى المملوك كتاب يذكر وصول رسل الملك العتيـق مـن قبرس اليـه يخبره بعصيـانه على ملـك انكلتيـز ومكـاشفتـه بالعداوة والحرب وانه قدكاتب السلطـان أعز اللّه نصره يبذل له من نفسه العبوديـة والطاعـة والمظاهـرة على ملك انكلتيـز ، والاخبار متـواترة بـأن الملك العتيق أحـرق موانى قبرس ووعرها وقطع الميرة عـن الساحل ، ولا شبهة ان مـولانايتقبل مـن المذكور ويقوي نفسـه على هذه المباينـةفان في تخاذلهم نصرة الاسلام وشغل بعضهم ببعـض وافتراق كلمتهم المجتمعة ، وقطعـا للميرة عن الشـام وامنا لجانـب كثير مـن جوانـب البحر ، وهـذا الملك العتيـق قد صـار لمولانا صـديق،ومـاسمي العتيـق إلا لانه صـار لمولانا عتيقـا، ولا اعتبار بحديثنا مـع صاحب القسطنطينية في انـا ننجده على قبرس، فانا انما وعدنـا بالنجدة عليها لما كانت بيد عـدونا ، واللّه ما أفلح ملك الروم قط، ولا نفع ان يكون صديقا ، ولا ضر ان يكون عدوا ، وكذلك صاحب الغرب ، واللّه يعصمك من الناس.

وقف المملـوك على كتاب بغداد والمقصود الـذي ندب لأجله الـرسول مـا ألم بذكـره في الكتـاب وهـي المعونـة على ا لجهـاد ، وعـرف استدعـاء المساعدة على تكريت، ولو كان لنـا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها لانها مهما بقيـت في يد مـن هـو الآن بها لكانـت في يـد المولى أبقاه اللّـه

تعالى، ومهما خرجت عنه خرجت عنها ، وما نقول انه ليس لنا تطلع الى مثلها لاسيما وهي طريق الى غيرها ، وقد فتح الله للمولى ببلاد هي مع سعتها ضيقة عن ربوتها، فللمولى أولاد كثر الله منهم، مامنهم الا من هو متطلع الى طرف ، وله اهل مامنهم الا من هو متطلع الى مملكة، وأمراء مامنهم الا من هو متوقع زيادة ، ومماليك مامنهم الا من يريد ان يوفى الحق عليه في الخدمة، ومن سيرّه المولى لهذا الأمر عدم من أصحابه منفعة فيما هو أهم مما سار فيه ،ومايليق ان يسير الا من يريهم مايعجزون عنه، ويكون عنوانا لما لعلهم في شك منه من قوة المولى على مايريد، وامساكه مع القدرة، ويرى المملوك ان مطلبهم نقد، ومطلبنا منهم وعد، وان كان ولابد من تسيير فلا يسير الا من يقضي الشغل ، ويستزيد الجعل.

ماتضمنه الكتاب البغدادي من عزم الخليفة على الحج في هذه السنة المملوك يستبعده ،بالاضافة الى الوقت والى عادة أهله آخرهم حجا الرشيدرحمه اللّه، ويستقربه بالاضافة الى خلته، وان سار صلح ان يهتم بما اشار اليه ابن الشهرزوري، ولاشك انه قد أنسي الرسالة التي توجه فيها ، فإنا بعثاه يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا».

وكتب الفاضل الى السلطان: « ينهي المملوك انه عرف تسحب رجل وصبي من القصر الغربي، وان المؤيد ، يعني ابن السلطان ، وكان ينوب عن اخيه العزيزبمصر ، حضر نائبه الطواشي بهاء الدين واستعلم أمرهما فذكر أن هربهما صحيح وأن أحدهما وهوالصبي من جملة ثلاثة وثلاثين ولدا كانوا اطفالا وقت الحوطة عليهم بالقصر الغربي، وقد بلغ هذا وكبر وزاحم عشرين سنة، والآخر كان معتقلا في الايوان فحدثت له خنازير في حلقه ، وأشفى على الهلاك فأمر الطواشي بنقله الى القصر الغربي من الايوان وفك حديدة، وحمل ليتداوى في اوائل سنة ثلاث وثمانين، واستمر مرضه واشتد ضعفه وبقي في القصر الغربي الى ان علم انه

تسحب فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربي، فذكر أستاذين كان الطواشي اقامهما ورضي امانتهما وانهما يذكران ان هذا القصر الغربي قدخرب ودثر، واكثرت التسليقات عليه ، ويجاوره اصطبلات فيها جماعة من الخربندية والمفسدين، والتطرق مستمر من هذه الاصطبلات الى من في القصر من النساء، وأنهما كانا أنهيا مرة بعد اخرى أن المكان غير حريز، والاعتقال فيه غير وثيق ، قال: وجمعت اصحاب الارباع وجيرة القصر ، ورجوت بترك الشناعة الظفرة بهما، والبحث واقع عنهما».

وكتب الفاضل عن السلطان الى العادل وهو بمصر: « انتهى الينا بالديار المصرية ، وبالحضرة العلية، أن جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف ، وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ماأطاعوا فيه القوى الغضبية ، وأحيوا بها ما أماته اللّه من أهل حمية الجاهلية ، واللّه سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا:(واعتصمو ا بحبل الله جميعا)[١٢٥] ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى اللّه عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنها ، وماعلمنا أن في ذلك نية تنجد، ولا مصلحة توجد، ولا هداية تعتقد، بدراسة تعقد ، ونار عداوة توقد، وقلما اثمرت المشاجرة الا خلافا، فالمجلس أعزه اللّه يوعز بكف الألسنة الخائضه، وعقل الأعنة الراكضة، فإن أقنع بلطفه المرضي والا كانت همته الرائضة ، ومن عاد بعد الزاجر أبعد عن مستقره ، وأزعج ، وليسع الخلف ماوسع السلف من الادب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتابا الى ربه فليفكر فيما كتب والى من كتب».

فصل

في ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللقاء ووصولهم الى رأس الماء

قال العماد: وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال مع ملك الالمان وخرج معهم المركيس ، والكندهري ، واخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها ، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها، وكان مخيم اليزك على تل العياضية فركبوا واشغلوا القوم بنيران النصال، وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا قد حفرناها عند نزولنا هناك ، وباتوا ترميهم وتشويهم وتصميهم الاتراك، وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين الى اللقاء ورفع السلطان تلك الليلة الثقل الى ناحية القيمون ، وقد امتدت ميمنته الى الجبل صفا ، وميسرته الى البحر زحفا، وعنده في يمين قلبه أولاده: الافضل، والظاهر، وأخوه العادل في أول الميمنة ، ويليه حسام الدين بن لاجين، ثم صارم الدين قاياز النحمي ،ثم حسام الدين بشاره ومعه بدر الدين دلدرم الياروقي، فهولاء عظماء دولته وكبراء مملكته ، ومعهم امراء ومقدمون جريئون مقدمون وكان في الميمنة ايضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جرديك النوري وعلى ميسرته صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة وتقي الدين، وابن المشطوب سيف الدين، وخشترين والامراء الهكارية والحميدية والزرزارية والمهرانية، وأمراء القبائل من الاكراد، ورجال الحلقةالخاصة واقفون في القلب ،وضرب للسلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف، وفي مرج عكا عين غزيرة الماءيجري منها نهر كبير الى البحر، فانحرفوا الى غربي النهر ، ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا ، فأنهض السلطان اليهم الجاليشية وانتظر من الله في كسرهم المشيه فاستداروا بمركزهم واثخنوا فيهم اللتوت رضا ، وبالدبابيس قضا ، وبالنصال قرضا، وبالاسنة وخزا ووحضا، وقضوا فيهم من حق الجهاد

سنة وفرضا، وكان المراد ان يحتموا فيثوروا حتى يلقاهم ويبوروا ، فماراموا مكانهم واصبحوا يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين ، ووقفوا على صهوات الخيل الى ضحوة النهار ، والراجل محدق بهم كالأسوار وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ، وارادوا يباسطونهم ، والسلطان يمد الرماة بالرماة ، والكماة بالكماة ، وهم ثابتون نابتون، ساكنون ساكتون، ونحن نقول لعلهم يحملون ويغضبون فيجهلون فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم ، وتفريق جماعتهم ، وأحس العدو بالضعف وانه متورط في الحتف ، فالجئوا لعجزهم عن الدفاع الى الاندفاع ، وساروا عائدين على هيئة الاجتماع ، والنهر عن يمينهم ، والبحر عن يسارهم ، وقد أيقنوا إن صح منهم الثبات بانكسارهم ، واصحابنا حواليهم ومن ورائهم ، يغرقونهم في دمائهم ، ويشلونهم ويقلونهم وينهلونهم من ماء الحديد ويعلونهم ، وهم يتحركون في سكون ويتظاهرون في كمون ، ويتذوبون في جمود ويتلهبون في خمود، وكلما صرع منهم قتيل حملوه وستروه، وطموا مدفنه وطمروه حتى يخفى أمرهم ولايصح لدينا كسرهم ، ونزلوا ليلة الخميس على جسر دعوق ، وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهم ويعوق، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاء حسنا، وأتوا كل ما كان فيه مستطاعا ممكنا ، وبذل إياز الطويل هذا اليوم جهده،وفل في هذا اليوم حدهم حده ، وكذلك سيف الدين يازكوج عام في بحرهم وقام بأمرهم ، واصبحوا يوم الخميس الى نار الوطيس ، ووصلوا الى مربضهم ولم يحصلوا على غرضهم ، ونقص منهم خلق ، وعدنا الى الخيام ظافرين ظفر الكرام ، فرحين بذل الكفر وعز الاسلام ، وعرف الفرنج مساق خزيهم ، واخفاق سعيهم ، فاحترزوا من الهلكة وماعاد وا الىٰ مثل هذه الحركة.

قال القاضي وكانوا قد جعلوا راجلهم سورا لهم يضرب الناس بالزنبورك والنشاب حتى لايترك احدا يصل اليهم الا بالنشاب ، فإنه كان يطير عليهم كالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيث لم يظهر

منهم أحد في ذلك اليوم أصلا، وعلم العدو مرتفع على عجلة وهو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال، وهم يدنون من العلم وهو عال جدا كالمنارة، خرقته بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة الى قبالة جسر دعوق، وقد ألجمهم العطش من شدة الحر ، وأخذ منهم وأثخنتهم الجراح، وكان الفعل معظمه للحلقة المنصورة في ذلك اليوم فإنهم أذاقوهم طعم الموت، و جرح منهم جماعة كاياز الطويل، فإنه قام في ذلك اليوم أعظم مقام يحكي عن الاوائل، وجرح جراحات متعددة.وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجعانه ، وله مقامات متعددة، وجرح خلق كثير في ذلك اليوم ، وعزم السلطان في تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم وكتب الى البلد يعرّفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب، فلم يصل من أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب، فلما أصبحوا كف السلطان الناس عن القتال خشية ان يغتالوا فإن العدو كان قد قرب من خيمه ووقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الى مخيمه، وكان لهم فيها اطلاب مستريحة فخرجت على اليزك الاسلامي وحملت عليهم، وانتشب القتال بينهم ، فقتل من العدو وجرح خلق كثير منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم ، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد ، وعاد السلطان الى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم الى منزلتهم، وكان عماد الدين زنكي غائبا بنفسه مع الثقل لمرض كان به، وبقي عسكره فعاد وقد اقلعت حماه وبقي التياث مزاج السلطان وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة، لكونه لم يقدر على مباشرة الأمر بنفسه، ولقد رأيته رحمه الله وهو يبكي في حال الحرب ، كيف لم يقدر على مباشرة القوم،

ورأيته وهو يأمر أولاد ه واحداً بعد واحد بمصافحة الأمر ، ومخالطة الحرب، ولقد سمعت منه، وقائلا يقول: إن الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين فأنشد تمثلا :

أقتلاني ومالكا

واقتلا مالكاً معي(١٢٦)

يريد بذلك انني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الاسلامية ، وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة ، منضما الى كثرتهم ، وشدة الغلاء والجدب عليهم .

فصل

في وقعة الكمين وغيرها ودخول البدل الى عكا

قال العماد: لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدّه، وكثّر لهم العدّة ، وأمرهم أن يكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدّو بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل ، فكمنوا تلك الليلة ، فلما اصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة وساروا نحوالفرنج وصالوا عليهم وأغاروا ، فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم اربعمائة فارس ، هكذا قال العماد في البرق— وقال في الفتح مائتا قنطاري، وكذا قال ابن شداد مائتا فارس— وطمعوا في المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين ، فخرج عليهم أسد العرين ، وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم ، فلم ينج منهم ناج ، ووقع في الاسر مقدمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيسية ، وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ووقف على تل كيسان وقد توافت إليه الاسرى والأسلاب فترك الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت مقومة بأموال عظيمة ، فما أعارها طرفا ولا تردد أمره فيها، وجلس وأحضر الأسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم واذن لهم في أن يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون احضاره ، ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال، وحفظهم بالقيود الثقال.

قال القاضي ابن شداد : ولما هجم الشتاء وهاج البحر ، وأمن العدو من أن يضرب مصاف وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العودة الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة، فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشري شوال وعقيبة ابن اخيه صاحب الجزيرة بعد ان افيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما ، وسار علاء الدين

ابن صاحب الموصل في أول ذي القعدة مشرفا مكرما ، وسار الظاهر في المحرم سنة سبع ، وتقي الدين في صفر منها، ولم يبق عند السلطان إلاّ نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة.

قال العماد: واشتغل السلطان بادخال البدل الى عكا وحمل المير والذخائر ، وأخرج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبوالهيجاء وأصحابه،ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خلق من الامراء وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل واحد ان يصحب معه ميرة سنةكاملة ، وانتقل العادل بعسكره الى حيفا على شاطىء النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب وتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج إليه، فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس المير والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يتعرضها،وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب المينا فانقلب كل من في البلد من المقاتلة الى جانب البحر لتلقي البطس وأخذ ما فيها، ولما علم العدو انقلاب المقاتلة الى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم ، كما شاء الله تعالى ، وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هيجانا عظيما وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من

ذلك وهـن عظيم ، وحـرج السلطان لذلـك حرجا شـديدا ،وكـان ذلك أول علائم أخذ البلد.

وقال العماد: لما دخـل الشتاء وعصفت الاهـواء ووقع في سفن الفـرنج الكسر انفذوها الى الجزائر للاحتياط ، وخافوا عليها من اختباط البحر.

وقال في الفتح: نقل الفرنج سفنهم خـوفا عليها الى صور فربطوها بها، فخلا وجه البحـر من مراكبهم ، وحصـل الامن فيه من جـانبهم ، وكان اصحابنا في البلد قـد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم وكـانوا زهاء عشرين ألف رجـل من أمير ومقـدم وجندي واسطولي وبحـري ومتعيش وتـاجر وبطال وغلمان ونـواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج، فـرأى السلطان ان يفسـح لهم فيـه رفقا بهم ورأفـة ، ومـاأفكـر ان في ذلك مخافـة وآفـة ، وأشير على السلطان بترتيب البـدل وتكفل العادل بذلـك وانتقل بمخيمه الى سفح جبـل حيفا قاطـع النهر ، وتقـدم بجمع السفن للنقـل واجتمع المنتقلون بالساحـل على الرمل، فمن نجز أمره انتقـل ، وكان الرأي ازاحة علة المقيمين فإنهم قـد جربوا وصبروا وخبروا وهم كنفس واحـدة وكانوا في ثروة وكرم ونخـوة ، وفيهم أبوالهيجاء السمين ، وله أتبـاع وأشياع ، وله في شرع السماحة اقتداء بالسلطان وأوضاع ، ولعلـه انفق من ماله في تلك السنـة خمسين ألف دينـار ، فلما فسـح لهم في الانتقـال لأجل الاستبـدال انتشر ذلـك الضم ، وانتشـر ذلـك النظـم ، ودخل الى عكـا مـن لم يجرب حصـارها ، ولم يخبر منـافعها ومضـارهـا، وماثبـت ممن كـان مقيما بها إلا الأمير بهاء الدين قراقوش ، ودخـل عشرون مقدما وأميراً شبه المكرهين ، عوض ستين ، واستخدمت الرجال وانفقـت الأموال ، وتفاوت الداخلون والخارجـون ، فـلا جرم وقـع الـوهـن ، وقضي الامـر، وتكفل بـالـداخلين المشطوب، وضاع الزمان وتعذر الامكان بعود مراكب العدو ، فلم يستتم البلد ماكان يحتـاج اليه من الرجال والاموال ، فان كـل من عين للدخول

كرهـه وصار يتـوسل في ان يعفـى ويبذل في نفسـه الفداء ، ثـم اا حقت كلمة الـدخول على مـن تعين له استمهلـوا زمانـا يتهيأون فيـه للدحـول ولإنفاذ قضاء الله تعالى أسباب لابد من وقوعها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد:وفي ليلة سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا، فانثلم الثغر، وبادر الفرنجة اليها فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وقاتلوا عنها الى ان بنوها ، وعادت أقوى مما كانت.

وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الالمان ، وكندكبير ، يقال له كند بنياط، ومرض الكندهري وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان،وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا عظيما ، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها النيران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نارا تقد، وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة في سرايا سرية ، وأساطيل بحرية ، ومن جملة ذلك ملوطة ، مكللة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجوهر مربوطة ، قيل إنها من ثياب ملك الالمان ، وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسرهوهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم السلطان جميع ماغنموه.

قال العماد: فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم واحضروا مائدة فضة عظيمة ، عليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن، ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطارا، فما أعارها السلطان طرفه احتقارا.

قال: واستشهد في عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار الدين، والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر ، فأحرقت للكفر شواني برجالها، وكان عند العود تأخر لنا شيني مقدمه الامير جمال الدين محمد بن ارككز ، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه الى الماء ، وسلموه الى البلاء ، فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان فقال: ما أضع يدي إلّافي يد مقدمكم الكبير ، فلا يخاطر الخطير إلاّ مع الخطير، فجاء اليه المقدم الكبير ، وظن أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه وقوي عليه ومافارقه ووقعا في البحر وغرقا ، وترافقا في الحمام واتفقا ، وعلى طريقي الجنة والنار افترقا ، واستشهد أيضا الأمير نصير الحميدي.

قال: وفي تاسع جمادى الأول قتل القاضي المرتضى بن قريش الكاتب في خيمته، قتله شريك له في دار بنابلس أراده على بيعها، وخرج من خيمته فوجد قاضي نابلس فقتله، وضربه وما أمهله، ومر لينجو فأدرك، وضرب بعمود خيمة فأهلك ، واستكتب السلطان اخا المستشهد مكانه، فلم يبلغ في الاحسان ميدانه.

قال :وفي هذه السنة ورد كتاب سيف الاسلام اخي السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها.

قال: ووصل القاضي الفاضل من مصر الى المعسكر المنصور في ذي الحجة ، وكان السلطان متشوقا لقدومه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين ، على ان امور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه ، دائم الاعتماد والاستناد على احسانه ، والى اركانه فان استقدمه خاف على ماوراءه من المهام ، وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام ، وكان يكاتبه بشرح الاحوال يستشيره والنجابون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات ، والاستشارة في المهمات ، فوصل الى القدس واعتاق بتوالي

الامطار ، ثم وصل في ذي الحجة ،ورجع الفضل ، واجتمع الشمل، واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره.

قلت: وفي جمادى الاولى من هذه السنة توفي بالموصل قاضي القضاة محيي الدين ابو محمد بن قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، وقد اثنى العماد الكاتب عليه في الخريدة ثناءً كثيرا وانشد له اشعارا حسنة منها في التوحيد:

قامت بإثبات الصفات أدلة
قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت
هزمت ذوي التشبيه والتمثيل
فالحق ما صرنا إليه جميعنا
بأدلة الاخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد
ألقاه فرط الجهل في التضليل

وله في مدح الصحابة رضي الله عنهم :

لائمي في هوى الصحابة
بة ارجع إلى سقر
لابلغت المنى ولا
نلت من رفضك الوطر
كيف تنهى عن حب اقوا
م هم السمع والبصر
وهم سادة الورى
وهم صفوة البشر
فأبو بكر المقد
م من بعده عمر

- ٨٧٩٢ -

ثــــــــم عثمان بعـــــــــده
وعليّ على الاثـــــــــــــــــــــــر
أيها الـــــــرافضي حســــــــبك
فـــــالحق قـــــــد ظهـــــــر (١٢٧)

ثم دخلت في سنة سبع وثمانين

ففيها وصل إلى الفرنج ملك افرنسيس وملك انكلتيز وغيرهما ، واخذت عكا يسر الله فتحها .

قال العماد:والغيم في هطلانه ، والبحر في هيجانه ، والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم، ولطف الله به قد خص وعم ، والعادل مخيم قاطع نهر حيفا على الرمل ، وسفن البدل الى عكا في البحر متصلة السبل، والفرنج مستمرون على الحصار ، متحرزون من الاصحار، ونوب اليزك راتبه، ووظائف الجهاد مواظبة ، ووصل من الديوان العزيز مثال ومعه مكاتبة للمُلك الافضل وفيها اكرام واجلال وفضل وافضال.

وفي ثالث صفر رحل تقي الدين لتسلم البلاد التي اضيفت اليه شرقي الفرات ، وكان له بالشام المعرة وحماه وسلمية ، وجبلة ، واللاذقية، وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر ، وسميساط وضياعها ، وميافارقين وحصونها واعمالها وقلاعها ، وسار على أنه يرجع عن قريب ، فأبطأ وتشوف الى افتتاح مايجاوره من البلاد ، وسار الى ميافارقين فكان السلطان ينسب ماجرى من استيلاء الكفارعلى عكا بعد قضاء الله تعالى الى غيبته ، فإنه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته ، وجور مجاورته ، وسياتي ذكر وفاته في آخر السنة.

ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه أنه اغار على جشير للفرنج بطرابلس فاستاقه ، ولم يطق الكفار لحاقه ، واقتطع لخاصته منه أربعمائة رأس تلف في الطريق منها أربعون، وغنم أبقارًا وغنما ، وانفذ للعماد منها بغلة، وذلك رابع صفر.

وفي ليلة هذا اليوم القت الريح مركبا للعدو على الزيب فكسرته، وكان فيه خلق عظيم منهم، فغرق بعضهم وأسر بعض، وفيهم امرأتان

سبيتا. وفي ليلة أول ربيع الاول خرج أصحابنا من البلد وهجموا على العدو وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، واخذوا منهم من خيمهم جمعاً عظيما منهم اثنتا عشرة امرأة ، وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك للحلقة السلطانية ، وخرج اليهم من العدو خلق ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، وقتل فيها من العدو جماعة منهم مقدم كبير، ولم يفقد من المسلمين الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه يسمى قراقوش ، وكان شجاعا له وقعات، وفي تاسع ربيع الاول بلغ السلطان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش، فأمر العادل ان يكمن بالعسكر خلف التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هو فكمن وراء تل العياضة ومعه من أولاده الصغار ، والقاضي الفاضل وانذر الفرنج ، ولم يخرج منهم أحد ، ووصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون أسيراً من الفرنج اخذوا في بيروت، فيهم شيخ كبير هرم لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق فيه قوة إلا مقدار مايتحرك، فسأله عن مجيئه فقال للحج إلى قيامة ، وبيني وبين بلادي مسيرة اشهر، فرق له واطلقه وأعاده إلى العدو راكبا على فرس، وطلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يأذن ، وسئل عن ذلك فقال:لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدم ويهون عليهم وهم الآن لايفرقون بين المسلم والكافر. ثم لما أقبل الربيع توافت العساكر وفاء بموعدها، فوصلت في شهر ربيع الأول فأول من قدم الأمير علم الدين سليمان بن جندر صاحب قلعتي عزاز وبغراس ، وهو شيخ له رأي وتجربة ومنزلة كبيرة ومرتبة ، والملك الأمجد صاحب بعلبك وبدر الدين مودود والي دمشق في رجالهم وابطالهم ، وفي كل يوم يقدم أمير بعد أمير ، والله يتولى التدبير، وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون ،وهم حاشدون حافلون فوصل ملك افرنسيس فليب في عدة من عبدة الصليب ،ثاني عشر ربيع الأول في ست بطس عظام ، مملوءة بفوارس ذوي اقدام ، فقلنا ماحمل الماء إلا أهل النار ، وماأجلب للدوابر الا الدبار ، وكان عظيما عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث اذا

حضرحكم على الجميع، ومازالوا يتواعدونا به حتى قدم وصحبه من بلاده باز عظيم عنده، هائل الخلق ابيض اللون نادر الجنس ، وكان يعزه ويحبه حبا عظيما ، فطار من يده حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابنا وانفذوه الى السلطان، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

قال القاضي ابن شداد:ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض مشرق اللون، مارأيت بازيا أحسن منه.

قال العماد: وكان مع هذا الملك باز أشهب ، كأنه عند إرساله نار تتلهب، ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله ، وكان في ظن الفرنج انه يقدم في جمع جم ، فلما رأوا جمعه قليلا سقط في أيديهم، فوعدهم بالمدد خلفه.

قال القاضي: وقدم بعده كند فرير وكان مقدما عظيما عندهم مذكور، كان حاصر حماه وحارم عام الرملة ، وفي ثاني عشر ربيع الآخر وصل كتاب من اللاذقية أن جماعة من المستأمنين نزلوا ناحية من جزيرة قبرس في عيد لهم، وقد اجتمع جمع كبير في بيعة قريبة من البحر ، وانهم صلوا معهم صلاة العيد، فلما فرغوا من الصلاة ضربوا على كل من كان في البيعة من الرجال والنساء عن آخرهم حتى القسيس وحملوهم الى مراكبهم وساروا بهم الى اللاذقية، وكان فيهم سبع وعشرون امرأة، وكانوا قد اغلقوا باب الكنيسة عليهم ليامنوا افلاتهم وأسروهم بأسرهم ، وكنسوا جميع مافي الكنيسة من الامتعة والاعلاق النفيسة ، واقتسموها فوصل الى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضة النقرة، كذافي كتاب القاضي.

وقال العماد في الفتح: وقيل حصل لكل واحد منهم على كثرتهم

أربعمائة درهم ، وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا، وركبوا في طلبها بأسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم ، فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل.

قال العماد: كان عز الدين سامة متولي بيروت ، ولم يكن لمراكب العدوبد من الجواز بها أو بقربها ، واذا عبرت أخذت ، وإن كانت مستعدة لحربها، فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادخار الغنى ، وكثرت في البحر غزواته، ووصل ملك الالمانيز إلى قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر ، واشتغل بها عن الوصول الى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا، وكان في الزيب وهو شمالي عكا طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا، ويقطعون الطريق على الفرنج.

قال القاضي: وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة ، حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا لها: إن السلطان رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج اليه،فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث الى اليزك الاسلامي، وأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فأتته وهو راكب على تل الخروبة ، وانا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا وأمرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه، فرق لها ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه ،ولم يزل واقفا رحمة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم اليها ، فأخذته وبكت بكاء شديداً، وضمته إلى صدرها والناس

ينظرون اليها ويبكـون وأنا واقف في جملتهم فـأرضعته ساعة ، ثـم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكرهم مع طفلها.

قال: فانظر الى هـذه الرحمة الشاملة لجنس الانس، اللهـم إنك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة آمين.

قال: وفي ذلـك اليوم وصل ظهير الـدين ابـن البلنكري، وكان مقـدما من أمراء الموصل، مفارقا لهم طالبا خدمة السلطان.